نظام طبقات العمر

دراسة فى الأنثربولوجيا المقارنة

بقلم أحمد أبو زيد

يعتبر موضوع التفاضل الاجتماعى وتقسيم المجتمع إلى هيئات أو فئات اجتماعية متمايزة من أهم وأطرف الموضوعات فى ميدان الأبحاث الاجتماعية والأنثربولوجية . وقد كتبت فى ذلك كتابات كثيرة تحاول أن ترد ذلك التفاضل الى أصوله الاجتماعية مثل اختلاف روابط الدم كما هو الحال فى العائلة والبدنة والعشيرة ، أو رابطة الجوار المكانى كما هو الحال فى أهل الناحية الواحدة أو أهل الحى الواحد ، أو إلى الثروة والجاه كما هو الحال فى كثير من نظم الطبقات الاجتماعية فى مختلف المجتمعات ، أو إلى الدين والسلالة كما هو الحال مثلاً فى الطوائف الهندية . والتمييز بين كل هذه الزمر والفئات الاجتماعية يقوم فى الأصل على فكرة تفاوت أفراد المجتمع واختلافهم فى مظهر معين — أو أكثر — من مظاهر الحياة الاجتماعية مما يترتب عليه توزعهم بين جماعات مختلفة ، تشغل كل جماعة منها منزلة اجتماعية محددة تفرض عليهم القيام بواجبات وأعمال معينة كما تمنحهم حقوقا وامتيازات مرسومة معلومة إزاء الفئات الأخرى التى ينقسم إليها المجتمع . بيد أن ثمة عددا محدودا من المجتمعات البدائية يقوم التفاضل الاجتماعى فيها على أساس مخالف لتلك الأسس السابقة التى كثرت فيها الكتابة ، وإن اتفق معها فى الغرض والهدف . وأعنى بذلك ترتيب أعضاء المجتمع — وبخاصة الذكور منهم — على أساس السن أو العمر . وليس المقصود من (العمر) هنا السن الفسيولوجية أو المراحل العمرية التى يمر بها الفرد فى حياته من الطفولة إلى المراهقة والشباب إلى الرجولة الكاملة ؛ فهذه تقسيمات عامة فضفاضة وتوجد فى كل المجتمعات على اختلاف درجاتها ونصيبها من الحضارة والتقدم ، كما أنها تتعلق بالفرد من حيث هو فرد وليس من حيث هو عضو فى مجتمع معين .

أى أنها ــ بقول آخر ــ لا تتخذ شكل النظام الاجتماعى Social institution . إنما المقصود هنا هو تقسيم أعضاء المجتمع أو الذكور منهم على الأقل إلى جماعات طبقية تنتظم كل جماعة منها كل الأفراد الذين ينتمون إلى سن معينة بحيث يترتب السكان جميعا فى النهاية فى طبقات تعلو إحداها الأخرى ويقف كل منها موقفا معينا من بقية الطبقات التى تعلوها أو تأتى دونها فى السلم الاجتماعى ، كما تعمل الطبقة الواحدة وتتصرف فى كل شئون الحياة الاجتماعية ككل أو كوحدة متماسكة .

ويشيع هذا النوع من التمايز الاجتماعى فى مجتمعات معينة بالذات فى إفريقيا وأمريكا وبعض جزر المحيط الهندى وبعض قبائل أستراليا ، ولكنه لا يتمثل بوضوح وقوة فى أى منها كما يتمثل فى شرق إفريقيا عند تلك المجموعة من الشعوب التى تعرف على العموم باسم الشعوب نصف الحامية Half-Hamites وبخاصة عند القبائل النيلية الحامية أو النيلوحامية Nilo-Hamites (1) . وهى كلها مجتمعات تنفرد بنسق سياسى معين

---

(1) أنصاف الحاميين عبارة عن مجموعة كبيرة من الشعوب تقطن منطقة واسعة فسيحة فى شرق إفريقيا وبخاصة فى كينيا ، وإن كان بعضها يقيم فى جنوب السودان مثل قبائل بارى Bari ولاتوكا Latuka وتوبوثا Topotha ، بينما يسكن البعض الآخر فى شمال تنجانيقا مثل بعض قبائل الماساى Masai . وتنتمى كل قبائل هذه المجموعة إلى أصل إثنولوجى ولغوى واحد ، فهم يجمعون بين العناصر الحامية Hamites والنيلية Nilotes ؛ كما أن بلادهم ذاتها تعتبر على حد تعبير الأستاذين باومان وفسترمان « جسرا جغرافيا » يصل الحاميين الذين يسكنون الشمال الشرق من إفريقيا بالشعوب النيلية التى تقطن أعالى النيل . أنظر فى ذلك : Baumann, H. and Westermann, D : *Les Peuples et les Civilisations de l'Afrique*, Paris, 1948, P.251.

وكلمة « أنصاف الحاميين » غير دقيقة تماما لأن هذه القبائل قد يكون بعضها أقرب إلى الحاميين لغة وعنصرا ، بينما يقترب البعض الآخر اقترابا شديدا إلى النيليين. ولذا نجد دراببرج Driberg مثلا يقسم هذه المجموعة إلى قسمين كبيرين يسميهما النيليين الحاميين Nilo-Hamites والحاميين النيليين Hamito - Nilotics ، ويضع تحت الشعبة الأولى قبائل لاتوكا وتوبوثا وجى Jie وكارامويونج Karamojong وتركانا Turkana ومورلى Murle وتسو Teso وسوك Suk أو بوكوت Pokot ، بينما يضع تحت الشعبة الثانية قبائل ماساى وكبنجيس Kipsigis وكيبو Keyu ومجموعة قبائل ناندى Nandi . أنظر فى ذلك : Driberg : " A Note on the Classification of Half-Hamites in East Africa " ; *Man*, vol. 39; No. 19 .

وبطراز خاص من البناء الاجتماعي . والغرض من هذه الدراسة المقارنة لنظام طبقات العمر هو التعريف بهذا النوع الفريد من النظم الطبقية ومحاولة تفسيره وتبيين وظيفته الاجتماعية أو الدور الذى يؤديه فى البناء الاجتماعى فى تلك المجتمعات . ومما يؤسف له أن الكتابات التى تناولت هذا النظام بالدراسة والتحليل لا تزال قليلة جدا . إذ لا نكاد نجد سوى كتابين اثنين (١) يعالجان الموضوع معالجة جزئية تنقصها الدقة فى كثير من المواضع ، وإن كان هناك عدد لا بأس به من المقالات والأبحاث التى نشرت فى المجلات والدوريات العلمية والتى تعالج فى الأغلب بشيء من التفصيل دقائق هذا النظام فى مجتمعات معينة بالذات . وقد بلغ بعض هذه الأبحاث حدا كبيرا من الدقة والإتقان والعمق . وعلى هذه المقالات والأبحاث سوف يكون معظم اعتمادنا فى هذه الدراسة التى سوف تقتصر بالضرورة على المجتمعات والقبائل النيلوحامية . والعامل الوحيد الذى يفرض علينا هذا التحديد هنا هو توفر المراجع والمعلومات الصحيحة الدقيقة .

= وثمة تقسيمات أو تصنيفات أخرى لا داعى لنعرض لها أو الدخول فى تفاصيلها هنا ؛ مثل تصنيف هنتجفورد الذى يرد فيه على التصنيف السابق . راجع فى ذلك :

Huntingford : "On the Classification of Half - Hamites in East Africa" ; *Man*, Vol. 39; No. 185

وعلى أى حال فإن العلماء الذين تعرضوا لهذه المسألة يقرّرون بعدم إمكان وضع تصنيف نهائى لهذه الشعوب . وعلى العموم فالأغلب فى الكتابات الأنثربولوجية هو استخدام كلمة « النيليين الحاميين » لكل هذه القبائل ، وهذا هو ما سوف نتبعه هنا . ويسهل التمييز فى النيليين الحاميين بين خمس مجموعات على أساس اللغة هى : (أ) مجموعة القبائل التى تتكلم لغة الباري مثل قبائل باري وقبائل ماندارى Mandari ؛ (ب) مجموعة القبائل التى تتكلم لغة اللاتوكا مثل قبائل لاتوكا ذاتها وقبائل لانجو Lango ؛ (ج) المجموعة التى تتكلم لغة التيسو ومنها قبائل تيسو وتوبوثا وتركانا وكارامونجونج ؛ (د) مجموعة قبائل ماساى ؛ (هـ) وأخيرا مجموعة القبائل التى تتكلم لغة النانذى وهى قبائل نانذى وكيبسيس وكيبو وبركوت وغيرها . راجع فى ذلك :

Greenberg : " Studies in African Linguistic Classification : The Eastern Sudanic Family " ; *Western Journal of Anthropology, VI*, p. 143-599;

Bryan and Tucker : *Distribution of the Nilotic and Nilo-Hamitic Languages of Africa*; p p. 27-37 .

(١) Eisenstadt, S. N. : *From Generation to Generation; Age Groups and Social Structure* (Routledge & Kegan Paul, 1956); Prins, A. H. J : *East African Age-Class Systems*; (Walters, 1953) .

ولما كان منهج الدراسة فى الأنثربولوچيا الاجتماعية يفترض أن أى نظام اجتماعى لا يمكن فهمه حق الفهم إلا فى ضوء النظم الاجتماعية الأخرى السائدة فى ذلك المجتمع نظراً لما بين تلك النظم المؤلفة للبناء الاجتماعى من تساند وترابط وتفاعل ؛ ولما كان الهدف من الدراسة الأنثربولوچية هو فى النهاية التعرف على وظيفة النظام موضوع البحث [1] ، فإنه يستحسن لكى نفهم نظام طبقات العمر أن نتعرف أولاً على الملامح الأساسية لذلك الطراز من المجتمعات التى يشيع فيها نظام طبقات العمر ، ثم ننتقل بعد ذلك إلى دراسة الطريقة التى تتكون بها طبقة العمر بشىء من التفصيل ثم دراسة ميكانيزم النظام كله أو الكيفية التى يعمل بها ، لنصل فى النهاية إلى تبيين الوظيفة الاجتماعية التى يؤديها النظام فى حياة تلك المجتمعات وفى بنائها الاجتماعى .

١

تنتمى القبائل والشعوب التى تعرف نظام طبقات العمر إلى ذلك الطراز من المجتمعات التى يطلق عليها عادة اسم المجتمعات الانقسامية Segmentary societies أو المجتمعات المتعددة الأقسام Polysegmentary societies والتى تعتبر من أبسط أنواع المجتمعات الإنسانية فى تركيبها ودرجة تقدمها . وينفرد هذا الطراز من المجتمعات ببعض خصائص هامة تميزه عن غيره من الأطرزة الاجتماعية . وأولى هذه الخصائص هى ارتكاز البناء الاجتماعى على نظام التوزع أو التقسيم الإقليمى . فأرض القبيلة تنقسم إلى عدد من الأقاليم أو الوحدات المكانية التى تنقسم بدورها إلى وحدات إقليمية أصغر فأصغر ، بحيث تحتفظ كل وحدة منها بشخصيتها الذاتية التى تتمثل فى استقلالها الاقتصادى والسياسى والحربى والدينى من ناحية ، وإن كانت الوحدات المتماثلة فى الدرجة تتحد معا من الناحية الأخرى لتؤلف وحدة أكبر لها نفس الاستقلال والتمايز السياسى والاقتصادى والحربى والدينى وهكذا . وتختلف

(١) أنظر مقالنا « الطريقة الأنثربولوچية لدراسة المجتمع » — مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية — العدد العاشر ١٩٥٦ ، صفحات ٨٥—١٠٠ .

عدد هذه الأقسام من قبيلة لأخرى كما تختلف أسماؤها ، ليس فقط فى اللغات واللهجات الوطنية المحلية الخاصة بكل قبيلة بل وأيضا فى الدراسات والكتابات التى بأيدينا ، حيث يترجم الكتاب المختلفون الكلمة الواحدة فى المجتمع الواحد بأسماء كثيرة مختلفة . ويكاد معظم الكتاب يتفقون الآن — لتسهيل أمر البحث والمقارنة وللتغلب على الفوضى السائدة من جراء تعدد الأقسام واختلاف المصطلحات — على الاقتصار على التميز عند كل هذه الشعوب بين ثلاثة أقسام اقليمية أساسية يسمونها : الأقسام الإقليمية الابتدائية أو أقسام الدرجة الأولى primary sections ، والأقسام الإقليمية الثانوية أو أقسام الدرجة الثانية Secondary sections ثم أقسام الدرجة الثالثة tertiary sections . والمقصود بهذا القسم الأخير أصغر وحدة إقليمية تكون لها شخصية سياسية واقتصادية وحربية ودينية متميزة وواضحة ، وهى نواة كل الأقسام والتجمعات الأخرى الكبيرة . وتتمثل الشخصية السياسية المستقلة لتلك الوحدة الإقليمية الصغرى فى وجود مجلس يضم الشيوخ وكبار السن فيها ، وتكون وظيفته النظر فى المنازعات التى تنشب بين أعضاء هذه الوحدة وكذلك البت فى الأمور التى تتعلق بأمنهم وسلامتهم . ويتمثل استقلالها الاقتصادى فى قصر حق استغلال الحقول وموارد المياه والمراعى المحيطة بها على أهلها دون غيرهم من سكان الوحدات المماثلة المجاورة والا اعتبر ذلك تعديا على حقوقها . كذلك تؤلف هذه الوحدة الصغرى من بين أبنائها القادرين على حمل السلاح قوة تدافع بها عن كيانها أو تقوم بالإغارات الليلية السريعة الخاطفة على مواطن الأعداء لتسلبهم ماشيتهم على الخصوص . وأخيرا فإن لهذا القسم الإقليمى الصغير (رئيسا) دينيا هو أحد شيوخ الإقليم يشرف على الحفلات الدينية والطقوس السحرية التى تستهدف خير القسم كله ؛ مثل استنزال المطر أو ممارسة الشعائر التى من شأنها زيادة خصوبة الأرض والماشية . ويتجمع كل عدد من هذه الأقسام المتجاورة وتتحد معا لتؤلف قسما إقليميا ثانويا تكون له نفس الخصائص ، بمعنى أن يكون له مجلس للفصل بين المنازعات ويتألف من ممثلين لكل مجالس الأقسام الإقليمية الصغرى وهكذا . كما تتحد الأقسام الثانوية لتؤلف قسما ابتدائيا على مثالها ونمطها . فالقسم الإقليمى الكبير إذن

ليس فى حقيقة الأمر غير مجرد تكوار للأقسام الصغيرة التى تدخل فى تكوينه كما يعكس نفس بناء تلك الأقسام المكونة له . وربما كان القسم الثانوى هو أهم هذه الأقسام فى معظم القبائل والشعوب النيلوحامية ، وذلك نظراً لمساحته ودرجة تركز الحياة الاجتماعية فيه . فهو ليس من الصغر الى الحد الذى تمتنع معه إلا أبسط الظاهرات الاجتماعية كما هو الحال فى أقسام الدرجة الثالثة حيث تمارس شئون الحياة الاجتماعية على نطاق ضيق محلى ؛ كما أنه ليس من الاتساع إلى الحد الذى يفقد البناء السياسى معه معالمه وملامحه كما هو الشأن فى أقسام الدرجة الأولى أو الأقسام الابتدائية . وكثيراً ما يكون القسم الثانوى هو القسم الإقليمى الوحيد الذى يتمتع بوجود مجلس خاص به ، أى تكون له وظائف سياسية واضحة كما هو الحال عند قبائل تسو وتوبوتا ولانوكا مثلا . وفى هذه الحالة لا تعدو الأقسام الابتدائية أن تكون مجرد أقسام جغرافية غير وظيفية [1] .

والخاصية الثانية التى تميز هذه المجتمعات هى انعدام الترابط بين هذه الأقسام الإقليمية السياسية وأقسام العشيرة على النمط الذى نجده مثلا عند قبائل النوير أوعند بعض قبائل البدو فى الصحراء ، فالعشيرة النيلوحامية — وهى أكبر وحدة قرابية ينحدر أعضاؤها من جد واحد هو الذى يعطى العشيرة اسمها — لا ترتبط بمكان معين بالذات ، أى أنها ليست جماعة متوطنة أو متمركزة . وهذا يصدق على كل الأقسام التى تنقسم العشيرة اليها ، أى البدنات بدرجاتها

---

(1) يقل وضوح هذا البناء السياسى الإقليمى عند القبائل الرعوية منه عند القبائل الأكثر استقرارا وارتباط بالأرض ، أى التى تعتمد اعتمادا كبيرا على الزراعة حيث تتخذ العلاقات الاجتماعية فى أى قسم من أقسامها ، وكذلك بين مختلف الأقسام ، شكلا منظما ثابتا . فانتجال الرعى كوسيلة للعيش يضعف صلة الناس بأى بقعة معينة محددة من الأرض نظراً لانتقالاتهم الدائمة وتجوالهم المستمر مما يؤدى إلى عدم تميز الحدود الإقليمية وإلى تداخلها حتى الضياع والزوال . ولعل أفضل مثال لذلك هو ما نجده عند قبائل البوكوت . فالبناء الإقليمى السياسى عند البوكوت الزراعيين من سكان التلال واضح إلى أبعد حدود الوضوح والتميز بحيث تؤلف كل وحدة إقليمية هناك وحدة سياسية وقضائية واقتصادية ، بينما يمين هذا البناء الى التميع والاختفاء عند البوكوت الرعاة . راجع فى ذلك :

Peristiany :- "The Age - Set System of the Pastoral Pokot" ; *Africa, XXI*,1951.

المختلفة . وبذلك فلا توجد أية علاقة قوية مباشرة بين نظام العشيرة والنسق السياسي ، أى أن نظام العشيرة ليست له أية وظيفة سياسية محددة . إنما تنحصر وظيفته فى المجال العائلى على الخصوص ، إذ يتدخل فى تنظيم الزواج تبعاً لقواعد الإكسوجامية exogamy[1] وفى تنظيم ملكية الماشية وأحياناً ملكية عيون الماء والمساهمة فى دفع الدية وما الى ذلك . ولكن على الرغم من عدم تمركز العشيرة ومن انتشار أفرادها فى كل الأقسام الإقليمية التى تنقسم اليها أرض القبيلة فإن أبناء العشيرة الواحدة يحملون دائما اسمها معهم أينما ذهبوا ، كما يحملون شارة الطوطم الذى ينسبون أنفسهم اليه ويتخذونه رمزا لهم [2] .

---

(١) العادة أن العشيرة clan كلها تعتبر هى الوحدة الإكسوجامية أو الاغترابية التى يحتم على أفرادها الزواج من خارج ، أى من عشيرة أخرى أجنبية ، وذلك نظراً لاعتبار جميع أفرادها من نفس الجد ومشاركتهم فى نفس الطوطم ، مما يعنى اشتراكهم فى وحدة الدم وهو ما يجعل الزواج بين أفراد العشيرة الواحدة أقرب إلى الزنا بالمحارم incest . ولكننا نجد فى بعض القبائل أن الفروع الصغرى للعشيرة – وهى التى تتألف فى العادة من أفراد ينتمون إلى ثلاثة أو أربعة أجيال فقط – هى التى تؤلف الوحدات الاغترابية ، أى أنه يباح بذلك الزواج بين أفراد العشيرة بشرط أن يكونوا منتمين إلى فروع أو بطنات مختلفة ، وذلك على الرغم من أن العشيرة كلها هى أيضا جماعة طوطمية . وأفضل مثال لذلك هو قبيلة الكيسيى . أنظر فى ذلك :

Peristiany, J. G : *The Social Institutions of the Kipsigis*; p. 117.

كذلك يذكر هنتنجفورد أن قبائل النانذى تنقسم إلى خمس عشائر اكسوجامية أى تبيح الزواج الداخل أو الإضوائى . ولكنه يلاحظ أن كل عشيرة من تلك العشائر الخمسة لها أكثر من حيوان طوطمى واحد ، أى أن العشيرة الواحدة تنقسم إلى عشائر صغرى لكل منها طوطمها الخاص ، وإن كانت كلها تحمل اسم العشيرة الرئيسية وتنتمى فى نفس الوقت إلى الطوطم الرئيسى . راجع :

Huntingford, G. W. B ; *Nandi Work and Culture*; p. 6 and p p. 105 - 7

(٢) يستثنى من ذلك قبائل الماندارى والبوكوت الزراعيين حيث يوجد تلازم واضح بين البدنة وأقسامها من ناحية والتوزع الإقليمى السياسى من الناحية الأخرى وحيث يلعب نظام البدنات هناك دورا هاما فى البناء السياسى . فالبدنات هناك تترتب ترتيبا تصاعديا تبعا لمركزها فى القسم الإقليمى الواحد ، إذ تشغل البدنة التى كان لها فضل السبق فى احتلال موقع القرية مثلا مركزا أعلى وأكثر امتيازا عن بقية البدنات كما يقوم رئيسها بوظيفة الزعيم الدينى الذى يشرف على شئون الزراعة والحقول وتوزيع الأرض الزراعية وتقديم القرابين والشعائر ، كما قد يشغل وظيفة كبير الحكمين فى المنازعات وبذلك يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية . راجع :

Beech : *The Suk, Their Language and Folklore*; pp. 6-7 and p. 36; Peristiany : " Age - Set System ... " ; op. cit.

والخاصية الثالثة التي يمتاز بها البناء الانقسامي في تلك الشعوب هي عدم وجود جهاز إداري تتركز في يديه السلطة التنفيذية في المجتمع كله. فالمجتمعات النيلوحامية تنتمي إلى ذلك الطراز من المجتمعات التي لا تؤلف دولة Stateless Societies (١). والواقع أننا لا نجد في أي قسم من أقسام القبيلة رئيسا يتمتع بأي نصيب من السلطة التنفيذية فضلا عن وجود رئيس أعلى للقبيلة كلها، أو نظام هرمي من الرؤساء على ما نجد في المجتمعات التي تؤلف دولة State societies . ومن المعروف أن من مقتضيات الرياسة السياسية القدرة على القسر والقهر ، أي القدرة على اتخاذ القرارات القاطعة النهائية وتنفيذها قسراً إن احتاج الأمر بالاستعانة بجهاز إداري يخضع للرئيس ويأتمر بأمره . وصفة القسر أو القهر تنعدم تماما في كل هذه المجتمعات . فمجالس كبار السن التي تتألف من شيوخ الأقسام الإقليمية والتي تنظر في المنازعات التي تنشب بين أعضاء هذه الأقسام لا تستطيع إصدار أحكام نهائية فيما يعرض عليها ، وإنما هي توصي فقط أو تنصح المحتكمين إليها دون أن تكون لها القوة على تنفيذ تلك القرارات أو إجبار المتقاضين على قبول الرأي الذي تشير به . ويحب بعض الكتاب أن يستخدم كلمة (رئيس) أو (رؤساء) ليصفوا بها بعض الشخصيات البارزة في تلك المجتمعات . ولكن الواقع أن أحدا من هؤلاء (الرؤساء) لا يتمتع بأي قدر من السلطة الزمنية . وعلى ذلك فإطلاق كلمة (رؤساء) عليهم هي من قبيل المجاز فحسب ، لأنهم إنما يستمدون نفوذهم ومكانتهم إما من تفوقهم ونبوغهم في مسائل الطب والسحر كما هو الحال فيما يتعلق (برؤساء) الماساى والكيسجيس ، وإما من قدرتهم على استنزال أو صنع المطر كما هو الحال عند الباري والمانداري . فهم إذن (رؤساء) دينيون وليسوا رؤساء سياسيين بالمعنى المفهوم (٢) .

---

(١) Fortes, M. and Evans-Pritchard, E. E ; (eds.) : *African Political Systems*; p. 5 and p. 13 .

(٢) يوجد عند الكيسجيس عدد كبير من هؤلاء (الرؤساء) ، لعل أهمهم على الإطلاق ما يسمونه *Kiruogindet neo* أو القاضي الأعظم ، ويصفه بريستيان بأنه لا يتمتع بأي سلطة قضائية خاصة وإنما هو مجرد ناطق بلسان المجلس . كذلك يوجد في كل مجموعة من مجموعات =

والخلاصة من هذا العرض السريع الموجز هي أن المجتمعات التي سوف ندرس نظام طبقات العمر فيها مجتمعات انقسامية ، بمعنى أنها :

١ — تنقسم أرض القبيلة فيها إلى عدد من الوحدات الإقليمية المنقسمة ، وتعكس كل وحدة منها نفس بناء ووظائف الوحدة الكبيرة التي هي جزء منها ، ولكن الوحدات الصغيرة حين تتحد لتؤلف الوحدة الكبيرة الشاملة لا تفقد شخصيتها الاجتماعية تماما .

٢ — تنقسم العشيرة وكل الزمر الاجتماعية الأخرى التي تقوم على روابط الدم إلى وحدات قرابية منقسمة هي أيضا ، وليس لأي من هذه الوحدات القرابية دور واضح في الحياة السياسية إلا عند البوكوت والماندارى ؛ بل إن أثرها لا يظهر حتى في أحداث الحياة اليومية العادية كالتعاون في العمل مثلا وذلك لتوزع أفرادها وتبعثرهم ، ومن هنا كانت روابط الجوار أقوى وأهم من روابط الدم .

٣ — نظام مجالس الوحدات الإقليمية نظام غير فعال من الناحية السياسية لعجز هذه المجالس عن تنفيذ القرارات التي تتخذها .

ولكن إذا كان الأمر كذلك ، وإذا لم تكن ثمت حكومة أو سلطة مركزية تشرف على شئون الضبط والقانون ، فما هو إذن الجهاز الذي يسير أمور الحياة في تلك المجتمعات وينظم قواعد السلوك في داخل المجتمع نفسه كما يرسم علاقة كل مجتمع منها بالمجتمعات الأخرى ؟

= القرى هناك (أي القسم الثاني) رئيس المراسيم والشعائر يسمونه *Poyot ap Tumdo* . راجع : Peristiany : *Kipsigis*, p p. 176-80 .

أما الماساى فان فوزبروك ينفى عنهم وجود رئيس أعلى لهم وإن كان يوجد في كل قسم من الأقسام الابتدائية شخص أو (رئيس) يدعى *Laibon* ولكن وظائفه في الأصل وظائف شعائرية خالصة ، فهو يعتبر بمثابة الطبيب الساحر . كذلك القبيلة كلها طبيب أعلى أو طبيب أول ولكنه هو أيضا لا يتمتع بأى سلطات زمنية أو تنفيذية . راجع :

Fosbrooke, H. A : " An Administrative Survey of the Masai Social System", *T. N. R*, No. 26; 1948 .

إن الفرض الذى نقدمه هنا هو أنه فى المجتمعات الانقسامية التى لا تتمتع بسلطة مركزية أو هيئة إدارية تنفيذية ، والتى لا يلعب نظام القرابة فيها دورا أساسيا ، يقوم نظام طبقات العمر بمهمة التنظيم والضبط والتكامل الاجتماعى ، كما يعمل على حفظ وحدة المجتمع وتماسكه . وهذا هو ما سنحاول البرهنة عليه فى الأجزاء التالية من هذه الدراسة .

٢

كان أول من أدخل اصطلاح "age-sets" الذى نترجمه « طبقات العمر » فى ميدان الأنثربولوجيا الاجتماعية هو المرحوم الأستاذ رادكليف براون Radcliffe - Brown ، وذلك فى غضون مناقشة طويلة على صفحات مجلة *Man* فى عام ١٩٢٩ (١) . فقد كان ثمة تردد طويل وعدم تثبت فيما يتعلق باختيار مصطلح يطلق على ما نسميه الآن « نظام طبقات العمر » وقدمت اقتراحات كثيرة . فنجد درايبرج Driberg مثلا يكتب مقاله عن هذا النظام فى دائرة المعارف البريطانية تحت عنوان « مراحل العمر Age - grades » ، كما اقترح غيره من العلماء مصطلحات أخرى كثيرة مثل « عشائر العمر age clans » أو « جماعات العمر age groups » وغيرها . وظل الخلاف قائما حتى حسم رادكليف براون الأمر باستخدام كلمة age - set . وفى عام ١٩٣٦ نشر الأستاذ إيفانز بريتشارد مقالا قيما عن « طبقات العمر عند النوير » (٢) استخدم فيه ذلك المصطلح الجديد بالمعنى الذى أعطاه له رادكليف براون ، وكان ذلك ايذانا بانتشار هذا المصطلح فى الكتابات الأنثربولوجية انتشارا كبيرا ، وإن كنا لا نزال نجد من حين لآخر بعض محاولات فردية غير موفقة لإطلاق تسمية جديدة على هذا النظام (٣) .

---

(١) c. f. *Man*, 1929, No. 13.

(٢) Evans - Pritchard, E. E: " The Nuer Age - Sets " ; *S. N. R.*, 1936, p p. 233 aqq.

(٣) مثال ذلك أن برنز A. H. J. Prins حاول استخدام كلمة age-class بدلا من كلمة age-set الشائعة الآن فى كل الكتابات الأنثربولوجية المعاصرة وذلك فى كتاب له ظهر ==

وقد يحسن التمييز منذ البداية بين لفظي « طبقة العمر age-set » و « مرحلة العمر age-grade » ما دمنا سنستخدمهما كثيرا في هذا المقال .

يعرف رادكليف براون « طبقة العمر » بأنها « جماعة محددة منظمة تضم جميع الأشخاص الذين ينتمون إلى سن واحدة ؛ وغالبا ما تتألف من الذكور وحدهم .. ففي إفريقيا مثلا — أو على الأقل في شرق إفريقيا وجنوبها — تتكون طبقة العمر في العادة من جميع الذكور الذين يكرسون معا في وقت واحد .. وسواء كان التحاق الشخص بطبقة عمر معينة بحدث بمجرد ولادته أو بعد تكريسه فإنه يظل معتبرا عضوا في تلك الطبقة طيلة حياته » (١) . ويضيف إيفانز بريتشارد إلى ذلك أن « لأفراد الطبقة الواحدة اسما واحدا مشتركا يعرفون به ، كما أنهم يشغلون جميعا نفس المركز الاجتماعي ، ويتبعون نفس أنماط السلوك في معاملتهم بعضهم بعضا ، ويتخذون موقفا واحدا إزاء غيرهم من الناس ممن ينتسبون إلى طبقات العمر التي تعلو طبقتهم أو التي تكون أدنى منها في المنزلة » (٢) . أما كلمة « مرحلة العمر » فإنها تطلق عادة على تلك « الأقسام المعروفة التي تنقسم اليها حياة الفرد في انتقاله من الطفولة إلى الشيخوخة » (٣) . والعادة أن الناس يميزون في حياة الفرد بين ثلاث مراحل مختلفة هي مرحلة الطفولة ومرحلة المراهقة ومرحلة الرجولة الكاملة ، مع وجود بعض اختلافات طفيفة من مجتمع لآخر بهذا الصدد .

= في عام ١٩٥٣ بعنوان : *East African Age-Class Systems* ، ولكني أحدا من الكتاب لم يستجب لهذه الدعوة رغم أن النظام في أساسه نظام طبقي . فقد رؤى أن استخدام كلمة class وغيرها من الكلمات التي يقترحها يرتز لن ينتج عنها إلا إشاعة البلبلة بعد أن أتفق العلماء بالفعل على استخدام كلمة set .

أنظر في ذلك نقدنا للكتاب المذكور ، وقد نشرناه في مجلة *Africa* (عدد يوليه ١٩٥٤ صفحة ٢٧٩ — ٢٨٠) .

(١) Radcliffe-Brown : *op. cit.*

(٢) Evans-Pritchard : *op. cit.*, p. 234.

(٣) Radcliffe-Brown : *op. cit.*

وتنحصر الفوارق الأساسية بين هذين النوعين من التقسيم ، أعنى طبقات العمر ومراحل العمر ، فى نقطتين : الأولى هى أن الرجل الفرد لا يستطيع بحال أن يغير طبقة العمر التى ينتمى إليها . فكما يقول رادكليف براون إن ولادة الفرد أو تكريسه فى طبقة عمر معينة يعنى انتماءه إلى تلك الطبقة طيلة حياته ، بينما هو ينتقل بالطبع وبحسب نموه من مرحلة عمر معينة إلى المراحل التالية بمرور الزمن وبفعل تقدمه فى السن . والنقطة الثانية هى أن فكرة التماسك والتمايز التى تعتبر ركنا جوهريا فى « طبقة العمر » لا تظهر على الإطلاق فى « مرحلة العمر » . فطبقة العمر هى جماعة من الناس تتميز باتحادها وتضامنها فى أداء واجبات وأعمال معينة مرسومة ، كما تتمتع كلها كوحدة بحقوق وامتيازات محددة ، وتؤدى — كوحدة أيضا — وظائف معينة فى الحياة الاجتماعية بشكل لا يتوفر فى مرحلة العمر . أى أن لطبقة العمر معنى اجتماعيا بينما يصطبغ مفهوم « مرحلة العمر » بصبغة فسيولوجية غالبة .

ومع ذلك ، فثمة علاقة وثيقة بين الاثنين . والواقع أنه لن يمكن فهم نظام طبقات العمر إلا بدراسة هذه الطبقات فى ضوء علاقتها بالمراحل العمرية التى يمر بها الإنسان فى حياته ، لأن احتلال الطبقة مركزا اجتماعيا معينا وانتقالها من مستوى اجتماعى إلى مستوى آخر أعلى منه يرتبط ولا شك بالانتقال التدريجى بين مراحل العمر المختلفة على ما سنرى حين نتكلم عن ميكانيزم النظام . كما أن الطبقات التى ينقسم إليها سكان المجتمع تتوزع فى العادة بين مختلف المراحل العمرية . وقد يحسن أن نوضح هذه النقطة الأخيرة باعطاء بعض أمثلة قليلة :

المثال الأول من قبيلة الكيسجيس التى درسها بريتشانى ... يميز الكيسجيس فى حياة الفرد بين ثلاث مراحل هى مرحلة الطفولة والصبا ومرحلة البطولة ومرحلة الشيخوخة . ولكن نظام طبقات العمر عندهم يتألف من سبع طبقات ، لكل طبقة منها اسم خاص تعرف به ، ويتتابع ظهور الطبقات أو اختفاؤها واحدة بعد الأخرى تبعا لتكريس فئات جديدة

من الشبان أو موت شيوخ القبيلة وكبار السن فيها بحيث أننا لا نجد في أي لحظة من اللحظات إلا أربع طبقات فقط تضم كل أعضاء المجتمع المكوسين . وإحدى هذه الطبقات تتألف من الأفراد الذين يكونون في مرحلة البطولة بينما تنتظم الطبقات الثلاثة الأخرى جميع الأفراد الذين ينتمون إلى مرحلة الشيخوخة . أما الأفراد الذين يكونون في مرحلة الطفولة أو الصبا فإنهم لا يؤلفون طبقة متماسكة متمايزة لأن تكوين الطبقات يرتبط ارتباطا وثيقا بتكريس الفتيان عند وصولهم إلى سن البلوغ . فالشبان المراهقون الذين تمارس عليهم شعائر التكريس في وقت واحد يؤلفون طبقة عمر واحدة ، ثم يتوالى ظهور الطبقات واحدة إثر الأخرى ، على ما يظهر في الشكل التالي ، بتكريس فئات جديدة من الشباب . حتى إذا ما تم ظهور الأسماء السبعة بدأت الأسماء تكرر من جديد وهكذا .

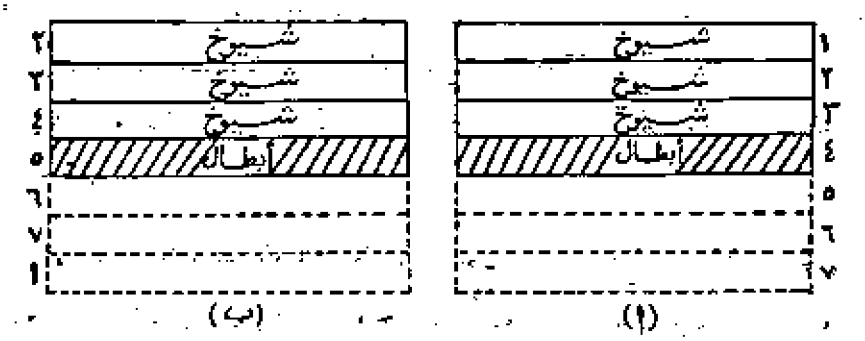

والمثال الثاني مستمد من قبائل الناندي الذين يشبهون الكيسجيس شبها كبيرا في تنظيمهم الاجتماعي وفي نظام طبقات العمر . فهم يميزون مثلهم بين نفس العدد من المراحل ومن الطبقات ؛ ولكن توزيع الطبقات بين مراحل العمر مختلف هناك عنه عند الكيسجيس ، لأن مرحلة الطفولة عندهم تشتمل على طبقتين كاملتين تضم إحداهما الأطفال الصغار وتضم الأخرى الصبيان الذين قاربوا سن البلوغ وأصبحوا بالتالي على وشك المرور بشعائر التكريس . أما مرحلة البطولة فإنها تضم طبقة واحدة تعرف باسم طبقة المحاربين ، بينما تشتمل مرحلة الشيخوخة على أربع طبقات تتفاوت في المركز والمستوى الاجتماعي .

والمثال الثالث والأخير نأخذه من قبائل المورلا Murle الذين يقسمون حياة الفرد إلى أربع مراحل متتالية هى الطفولة والمراهقة والرجولة الكاملة أو ما يسمونه بمرحلة "رجال القرية Village-men " ثم الشيخوخة ، بينما يتألف نظام طبقات العمر عندهم من إحدى عشرة طبقة . فالأطفال والصبيان يوزعون فى طبقتين كما يوزع المراهقون أيضا فى طبقتين تعرفان بطبقتى الأبطال المحاربين ، أما رجال القرية أو الرجال المكتملو النضج فانهم يؤلفون أربع طبقات ، وأخيرا يتوزع الشيوخ وكبار السن أى الأفراد الذين فى مرحلة الشيخوخة بين ثلاث طبقات متمايزة .

ومن هذه الأمثلة الثلاثة نرى أن مرحلة العمر الواحدة قد تضم أكثر من طبقة عمر واحدة فى نفس الوقت ؛ أى أن الأفراد الذين ينتمون إلى مرحلة معينة من مراحل العمر الفسيولوجى كالمراهقة أو الرجولة الكاملة قد يتوزعون بين عدد من الطبقات ، بحيث تحتل كل طبقة منها مركزا أو مرتبة اجتماعية معينة بالنسبة للطبقات الأخرى التى تشترك معها فى نفس المرحلة .

ويزيد النظام تعقيدا أن الطبقة الواحدة تنقسم هى ذاتها إلى وحدات صغيرة قد تنقسم بدورها إلى وحدات أصغر وهكذا . وتقوم كل هذه الانقسامات على أساس الاختلاف فى العمر الاجتماعى . ولن نحاول الدخول هنا فى تفصيل هذه الأقسام واختلافها من مجتمع لآخر واختلاف الأسماء التى يطلقها الكتاب المختلفون عليها ، ونكتفى لتسهيل التحليل وعقد المقارنة بأن نميز بين قسمين أساسيين من تلك الأقسام التى تنقسم إليها طبقة العمر . فالطبقة تنقسم أولا إلى ما سوف نسميه هنا بالأفواج ، كما أن الفوج قد ينقسم إلى ما سوف نسميه بالأرهاط . ونعنى بالفوج هنا أكبر الأقسام التى تنقسم إليها طبقة العمر ، وكثيرا ما تكون هى الأقسام الوحيدة فى الطبقة . أما الرهط فإننا نعنى به جميع الأفراد الذين يكرسون فى حفل واحد أى الذين يمرون بشعائر التكريس فى نفس الوقت . والعادة أن يكون لكل فوج ولكل رهط

اسم خاص يتميز به عن غيره من الأفواج أو الأرهاط ثم تزول هذه الأسماء بعد ظهور الطبقة كوحدة . وهذا ينقلنا إلى الكلام عن تكوين طبقة العمر ثم عن ميكانيزم النظام كله .

٣

سبق أن قلنا إن طبقة العمر تتكون فى العادة بعد إقامة الشعائر الخاصة بتكويس الشبان المراهقين ، وأن الشخص لا ينتمى إلى إحدى الطبقات إلا بعد تكريسه ، وإن كانت هناك بعض قبائل قليلة تلحق الفرد بطبقة من الطبقات بمجرد ولادته كما هو الحال عند النانذى مثلا . بيد أنه حتى فى مثل هذه الحالات لا تتخذ (الطبقة) شكل الجماعة المتحدة المتمايزة التى تتمتع بوجود مستقل وكيان متماسك إلا بعد أن يتم بالفعل تكريس كل الأفراد الذين تتألف منهم ؛ أى أنها لا تظهر كوحدة وظيفية إلا بعد التكريس . أما قبل ذلك فإن أفراد (الطبقة) لا يمارسون معا أى عمل جماعى منظم كما أنهم لا يشعرون بنفس التضامن أو نفس المصالح التى تتشكل وتتبلور بوضوح بعد التكريس . صحيح أنهم قد يرعون ماشيتهم معا فى نفس الرقعة من الأرض ، ولكنهم يفعلون ذلك تلقائيا بفضل تقاربهم فى السن وبالتالى فى الميول والأهواء ، دون أن يكونوا خاضعين لأى نوع من الالتزام الذى يفرضه عليهم فيما بعد انتماؤهم إلى طبقة عمر واحدة لها قواعدها وقوانينها الصارمة الدقيقة فيما يتعلق بالتعاون والتماسك والتضامن . فكأن طبقة العمر لا يعترف بها اجتماعيا إذن إلا بعد إتمام تكريس أفرادها ، على اعتبار أن التكريس هو الذى يعطى الفرد شخصيته الاجتماعية ويجعل منه عضوا فى المجتمع .

وليس هنا مجال تفصيل القول فى شعائر التكريس الخاصة بتكوين الطبقات أو بالحاق الشبان المراهقين بطبقة عمر جديدة ، ولو أن للموضوع طرافته ودلالاته الاجتماعية . ولكننا نرجو أن نفرد له مقالا مستقلا . ويكفى هنا أن نقول إن هناك نوعين من شعائر التكريس : شعائر جماعية وهى الأغلب

وشعائر فردية تمارس عند عدد قليل من القبائل . وفى الشعائر الجماعية نجد أن الفتيان هم الذين يطالبون بإقامة الحفلات الخاصة بتكريسهم ويحاولون فى سبيل ذلك الحصول على موافقة شيوخ القبيلة الذين بيدهم أمر السماح والإذن بتكوين الطبقات الجديدة ، وكذلك الحصول على موافقة طبقة الأبطال المحاربين القائمة بالفعل والتى سوف يحلون هم محلها بعد تكريسهم وتكوينهم لطبقة جديدة تتولى وظيفة الحرب (١) . ويمارس شعائر التكريس الجماعية فى العادة على أساس أكبر الوحدات الإقليمية السياسية ؛ ويعتبر الختان أهم عنصر فى تلك الشعائر (٢) وإن كان الفتيان يتعرضون إلى جانب ذلك إلى أنواع أخرى كثيرة من التعذيب ولقون شتى من المحن والمتاعب (٣)

(١) تمتاز العلاقات بين (الطبقة) الوشيكة التكوين والطبقة التى تشغل مرتبة البطولة بالفعل بالعداء الشديد عند معظم الشعوب التى تعرف نظام طبقات السن ، ولكن هنتنجفورد ينكر وجود مثل هذا الصراع العدائى ، وإن كان فى نفس الوقت يعترف بأن طبقة المحاربين لا تبدى استعدادا ولا ترحيبا بتكوين الطبقة الجديدة التى سوف تحل محلها والتى ستوف تدفعها بذلك إلى التخلى عن بعض امتيازاتها الاجتماعية وعن امتيازاتها الطبقية . ويتخذ العداء بين هاتين الطبقتين قبل أن يتم التكريس والتكوين شكل اعتداءات متكررة يقوم بها المحاربون ضد الفتيان المطالبين بالتكريس لمنعهم بذلك من تكوين الطبقة الجديدة .

(٢) يوجد الختان عند مجموعة الشعوب الناطقة باللغة النانداية (فيما عدا البوكوت الرعاة) وكذلك عند الماساى . ويمارس البوكوت الرعاة بدلا من ذلك بعض الشعائر التى تعرف باسم ماپانا Sapana وهى مقصورة حول قيام الفتى بطعن أحد الثيران الطوية بشرط أن يقتله من الطعنة الأولى . ويعتبر هذه الشعائر تعريف عند كل مجموعة الشعوب الناطقة باللغة التسو . ويعتبر قتل الحيوان من الطعنة الأولى علامة على النضج الغريزى وبذلك يؤرخ بشيرا بنجاح الشاب فى حياته القبلية كمحارب . راجع فى ذلك :

Oulliver: *A Preliminary Survey of the Turkana*, pp. 192—3; Nalder: *A Tribal Survey of Mongalla Province*, p. 70 and pp. 94—6; Fosbrook, *op. cit.*, pp. 26—8.

(٣) يتعرض الشبان فى كثير من المجتمعات إلى أنواع من التعذيب تختلف فى الشدة والقسوة من مجتمع لآخر مثل خلع بعض الأسنان عند التوركانا أو تشليخ الجبهة والرأس عند الماندارى أو الوخز بالأشواك والشجيرات الشوكية عند الكيسيى والمورلا ، أو الجلد بالسياط عند التسو . وقد نجد أنواعا من التعذيب أقل قسوة من هذه وتظهر على الخصوص فى إجبار الفتية على تناول طعام ماخن ملتهب أثناء حفلات التكريس ، أو حرمانهم من الطعام تماما فى ذلك اليوم مثلما يفعل البوكوت الرعاة . انظر فى ذلك :

وهى كلها تهدف إلى اختبار قوة احتمال الشبان على ملاقاة الصعاب التى سوف يصادفونها حين يحتلون مركز المحاربين الأبطال . فالتكريس إذن هو الرخصة التى بمقتضاها يعتبر الفرد لأول مرة فى حياته عضوا فى المجتمع ويحتل مركزا اجتماعيا محددا ويحق له مباشرة وظيفته الجنسية . هذا بالطبع إلى جانب إلحاقه بطبقة العمر الخاصة به (١) . أما شعائر التكريس الفردية فإنها توجد على الخصوص عند البوكوت الرعاة والتوكانا ، وهى لا تحتاج إلى تجمع الفتيان المطلوبة بتكريسهم وبإنشاء طبقة عمر جديدة ، وإنما تقام حفلة التكريس لكل منهم على حدة وانفراد على أن يلحق بعد تكريسه بالطبقة التى هى بسبيل التكوين . ولا يعتبر الختان عنصرا هاما فى تلك الشعائر الفردية وإنما تهم هذه الشعوب أكبر الاهتمام بمسألة طعن الجيوان التى سبق ذكرها .

وتكوين طبقة العمر يتم تدريجيا ويستغرق وقتا طويلا قد يمتد إلى بضعة أعوام قبل أن تتبلور الطبقة كوحدة اجتماعية وظيفية . والعامل الذى يتحكم فى ذلك هو موسم التكريس ، أى موعد بدء الشعائر والفترة التى تستغرقها تلك الشعائر قبل إعلان إتمام تكوين الطبقة الجديدة . وقد ذكرنا من قبل أن طبقة العمر تنقسم فى العادة إلى عدد من الأفواج ، وأن الفوج ينقسم إلى عدة أرهاط . ولكن الواقع أن الرهط هو الذى يتكون أولا نتيجة لتكريس عدد من الشبان معا فى وقت واحد . ثم يتألف الفوج بعد ذلك بتجمع عدد من تلك الأرهاط واندماجها فى وحدة ممايزة ؛ وأخيرا تتكون الطبقة ذاتها باندماج هذه الأفواج واتخاذها اسما واحدا عاما يحل محل أسماء الأرهاط والأفواج الداخلة فى تكوينها (٢) .

= Peristiany : *The Kipsigis*, pp. 6—33; Id : "The Age-set System of the Pastoral Pokot", *Africa*, p. 190., Nalder : *op. cit.*, p. 71.

(١) Peristiany : *The Kipsigis*, pp. 6—33; Beech : *The Suk*, p. 21; Barton : "Notes on the Suk Tribe"., *J. R. A. I.* LI. p. 91.

(٢) العادة أن يطلق على كل رهط من الشبان الذين يكرسون معا اسم خاص بهم يميزهم عن غيرهم من الأرهاط ، وحين تتخذ الأرهاط مكونة فوجا واحدا فإنها تتخذ اسما مشتركا هو اسم الفوج كله ، بينما تسقط أسماء الأرهاط المكونة لذلك الفوج من الاستعمال ويتكرر ذلك عند تأليف الطبقة . وتستمد الأرهاط والأفواج أسماءها فى معظم الأحوال من الأحداث الهامة التى تقع أثناء =

ويختلف عدد الأرهاط والأفواج التي تنقسم إليها طبقة العمر من مجتمع لآخر . فحفلات التكريس عند الكيسجيس مثلا كانت تقام فى الماضى كل سبعة أعوام ، وكان الشبان الذين يكرسون فى كل موسم يؤلفون فوجا واحدا ، ثم تنضم كل ثلاثة أفواج معا لتكون طبقة واحدة ؛ أى أنه كانت تظهر عندهم طبقة عمر جديدة كل حوالى إحدى وعشرين سنة تضم جميع الأفراد الذين يكرسون فى تلك الفترة من الزمن ، رغم ما بينهم من اختلاف فى السن الفيزيقى . أما الآن ، فلم يعد هناك ضابط دقيق لتحديد مواعيد بدء مواسم التكريس وانتهائها ، وأصبحت هذه الحفلات تقام على فترات أقصر مما كانت عليه فى الماضى . بل وكثيرا ما تقام كلما توافر عدد كاف من الشبان الذين بلغوا السن المناسبة ، وبذلك لم يعد من المستطاع تحديد عدد ثابت للأفواج الداخلة فى تأليف الطبقة ؛ وإن كان پريستيانى يرى أن الطبقة قد تشمل سبعة أفواج [1] أو أكثر ما دامت لا تتحكم فى تكوين الأفواج أية مقاييس زمنية ثابتة . أما النانديى فإن شعائر التكريس تقام عندهم مرة كل خمسة عشر عاما تقريبا ؛ وتظل قائمة لمدة أربعة أعوام متتالية ، وبذلك تشمل الطبقة عندهم أربعة أفواج متمايزة يضم كل فوج منها الأفراد الذين مروا بتلك الشعائر فى نفس العام ، فارتبطوا بذلك بعضهم ببعض بروابط قوية متينة تظهر فى معيشتهم معا وفى تلازمهم فى العمل والتجوال وجلوسهم للسمر حول نار واحدة أثناء الليل [2] . وتقام شعائر التكريس عند الماساى مرة

— موسم التكريس . من ذلك أن أحد الأفواج عند الكيسجيس أطلق عليه اسم (شلن) لأنه تكون فى الوقت الذى حل فيه الشلن الانجليزى محل الروبية الهندية فى التعامل فى شرق إفريقيا ، كما أطلق على فوج آخر اسم (قطار) لمصادفة تكوينه وقت إدخال السكك الحديدية هناك . أما أسماء طبقات العمر فهى فى معظم المجتمعات النيلوحامية ثابتة لا تتغير ويتكرر ظهورها فى النظام كله واحدا بعد الآخر . وقد نجد بعض الاستثناء من ذلك عند الپوكوت الزراعيين وعند النانديى حيث نجد بالفوج أسماء ثابتة لا تتغير وإنما يتكرر ظهورها من طبقة لأخرى ، بينما قد تتغير أسماء الطبقات ذاتها فى بعض المجتمعات بمعنى أن كل طبقة جديدة تتخذ اسما جديدا لم يستخدم من قبل . راجع :
Peristiany : *The Kipsigis*, pp. 43—5; Barton, *op. cit*, pp. 60—61.

(1) Peristiany : *Ibid*, p. 44

(2) Hollis : *The Nandi*, p. 12

كل سبعة أعوام ، وتستمر هي أيضا حوالى أربع سنين . ويخبرنا فوزبروك أن جميع الأفراد الذين يختنون فى نفس العام يؤلفون رهطا واحدا له اسم خاص به ، ثم تندمج الأرهاط الأربعة التى تتكون فى موسم التكريس الواحد لتؤلف فوجا واحدا يتسمى باسم خاص ، وأخيرا يندمج كل فوجين متتالين فى طبقة واحدة تضم بذلك جميع الأفراد الذين يكريسون فى فترة خمسة عشر عاما تقريبا ، وهى الفترة التى يستغرقها كل موسمين متتالين من مواسم التكريس (١) .

والأمر لا يسير دائما على مثل هذه الدقة والرتابة فى كل المجتمعات . فكثيرا ما لا يكون هناك مواسم محددة مرسومة للتكريس . فحفلات التكريس عند البوكوت الزراعيين مثلا لا تقام فى مواعيد معلومة ، وإنما يختن كل الأفراد بين العاشرة والعشرين من عمرهم كلما توافر عدد ملائم منهم ، وان كانت العادة أن تقام حفلات الختان والتكريس كل ثلاث سنوات تقريبا على ما يذكر بارتون وبيتش ، ثم تتألف طبقة عمر جديدة من جميع الأفراد الذين يختنون فى بحر خمسة عشر عاما وهكذا (٢) .

بيد أن هذه الاختلافات فى عدد الأفواج والأرهاط بل وفى عدد طبقات العمر لا يترتب عليها أية فوارق فى الأسس الجوهرية التى يقوم عليها النظام ذاته فى أى من هذه المجتمعات . فالخطوط الرئيسية واحدة ومتشابهة وإن اختلفت التفاصيل . فطبقة العمر تتكون بالتدريج خلال فترة معينة من الزمن تحددها مواسم التكريس ذاتها ، وبعد أن يتم تكوين الطبقة ينظر

---

(١) Fosbrooke : *op. cit.*, pp. 26—30; Hollis : *The Masai*, p. 262 .

أما ستيجان Stigand فانه يقول فى كتابه *The Land of the Zinj*, (P. 212) إن كل موسم من مواسم التكريس ينتج عنه تكوين ثلاثة أرهاط فقط من الأفراد الذين يختنون خلال ثلاثة أعوام متتالية ، بينما يقول هيندى Hinde فى كتابه *The Last of the Masai*, (p. 40), إن هناك حفلة تكويس واحدة تقام مرة كل خمسة أعوام ، ويختن فيها جميع الأفراد الذين فى سن ملائمة فيؤلفون فوجا واحدا ، أو أن الفوج يتكون — تبعا له — كل خمسة أعوام .

(٢) Barton : *op. cit*; p. 87; Beech : *op. cit.*, p. 6. n. 2.

إليها من خارج على أنها وحدة متماسكة متعاونة لا يعتد معها بالتميزات الداخلية بين الأرهاط والأفواج . أى أن كل طبقة تتصرف – بكل أفرادها وأرهاطها وأفواجها – كجسم واحد إزاء الطبقات الأخرى دون أن تعير التميزات والتقسيمات الداخلية فى تلك الطبقات أدنى اعتبار ؛ وإن كانت نفس هذه التميزات والتقسيمات تظل ذات أثر فعال فيما يتعلق بتنظيم السلوك داخل الطبقة ذاتها لأن أفراد الرهط الذى تكون أولا يعتبرون أعلى منزلة من أفراد الأرهاط التالية ولذا ينتظرون منهم أن يبدوا شيئا من التبجلة والاحترام فى معاملتهم (١) .

وليس التكريس هو العامل الوحيد فى تكوين وقيام طبقة العمر كوحدة وظيفية متمايزة . فهناك عامل آخر لا يقل عنه أهمية ويتمثل فى ممارسة بعض الشعائر التى بمقتضاها تتقاعد الطبقة التى تشغل المحاربين وعمال أفرادها إلى مرتبة أعلى منها هى مرتبة الشيوخ ، وبذلك يخلو الطريق تماما أمام الطبقة الجديدة الناشئة . والواقع أن هذه الشعائر تحقق غايتين متكاملتين : الأولى هى إدماج الوحدات العمرية الصغرى فى الوحدة الكبرى أى فى طبقة عمر واحدة ، ما دام التكريس لا يمارس على كل أفراد الطبقة فى نفس الوقت . ويقتضى ذلك الاندماج يحتل كل أفراد الطبقة نفس المستوى ونفس المركز الاجتماعى وتتناسى فوارق العمر الفسيولوجى ويُعطى الاعتبار الأول للعمر الاجتماعى . والغاية الثانية هى زحزحة طبقة المحاربين وترقيتها إلى مرتبة شيوخ العشيرة مما يستتبع بالضرورة زحزحة جميع الطبقات الأخرى الموجودة بالفعل ونقلها إلى مراكز أعلى من تلك التى كانت تشغلها قبل تكوين الطبقة الجديدة (٢) .

---

(١) Bernardi : "The Age-System of the Nilo-Hamitic Peoples", *Africa*, *XXII*, p. 319.

(٢) ترجع أهمية هذه الحقائق إلى أن طبقة العمر الجديدة لا تمارس حقها فى القيام بوظيفة المحاربين إلا بعد تقاعد الطبقة التى تقوم بالفعل بهذه الوظيفة وتنازلها عن السلطات المخولة لها لطبقة الناشئة . وقد يحدث هذا الانتقال آليا كما هو الحال عند البوكوت الزراعيين والتركانا والمورلا : بمعنى أنه بمجرد انتهاء موسم التكريس يعتبر كل الأفراد الذين كرسوا خلال خمسة =

وهذه الحفلات التي بمقتضاها تتقاعد طبقة الأبطال وتحل طبقة العمر الجديدة محلها تمارس هي أيضا بالضرورة في أوقات معينة تقدر في معظم المجتمعات التي بأيدينا معلومات وافية عنها بحوالي خمسة عشر عاما في العادة. وفي أثناء هذه الفترة تكون هناك طبقة عمر تشغل مركز البطولة وتمارس دون غيرها من الطبقات وظيفة الحرب وبخاصة الحرب الهجومية. وتعرف هذه الفترة باسم «مدة الطبقة». فكأن «مدة الطبقة» هي الفترة التي تمضيها

= عشر عاما تقويبا هم الأبطال المحاربون، وإن كانوا لا ينفردون مع ذلك بهذه الوظيفة، لأن كل الرجال المكرسين يشاركون بالفعل في الحرب وبخاصة الحرب الدفاعية. أنظر في ذلك:

Barton, *op. cit.*, p. 90; Beech: The Suk, p. 6.

ويذكر جليتر أن التركانا لا يمارسون أية شعائر لتسهيل هذا الانتقال أو التقاعد من وظيفة الحرب والبطولة. ويذكر أن هذه الزحزحة تحدث آليا. أنظر:

Gulliver: *Survey*, p. 129.

ولكن الأغلب أن هذه الزحزحة لا تحدث إلا بممارسة هذه الشعائر التي يمكن تسميتها شعائر الإحالة أو شعائر التقاعد. وحيث توجد هذه الشعائر فإنها تتألف من عنصرين أساسيين: الأول هو ذبح الماشية وبخاصة الثيران، ويقوم بتلك العملية نفس الطبقة المتقاعدة ويطلق على هذه الحفلات اسم *Sagèt* (عند الكيبسيس) أو *Saket* (عند النانذي) أو *Sakobet* (عند الكيو والكاراموجونج) وهي كلها تعني ذبح الثور. والعنصر الذي عنصر رمزي بحت يعكس لنا معنى الشعائر بل والموقف الاجتماعي كله؛ إذ تقوم الطبقة المتقاعدة بتسليم كل ملابسها وأغطية الرأس والعلامات والشارات الخاصة بها والتي تدل على البطولة إلى الطبقة الجديدة ثم يرتدون بدلا منها عباءات الشيوخ. راجع:

Peristiany: *The Kipsigis*, pp. 34—7; Massam, *op. cit.*, pp. 57—64; Huntingford: *Nandi Work and Culture*, p. 14; Fosbrooke; *op. cit.* p. 30; Fox: "Further Notes on the Masai of Kenya Colony", *J. R. A. I.*, LX, p. 453; Leakey: "Some Notes on the Masai of Kenya Colony", *J. R. A. I*, LX, p. 169.

وعلى العموم فقد أبطلت هذه الحفلات أخيرا عند معظم هذه القبائل وبخاصة عند الكيبسيس والنانذي والتسو لخوف حكومات المستعمرات من تكتلات الأبطال المسلحين الذين ينتمون إلى الطبقة الناشئة والطبقة المتقاعدة بكامل عدتهم وعتادهم، وخشية ما قد ينجم عن مثل هذه التجمعات من ثورات أو قلاقل ضد هذه الحكومات. ويخبرنا هنتنجفورد في هذا الصدد أن أحد الزعماء الدينيين الذين يعرفون باسم *orkoiyot* عند النانذي أراد أن ينتهز فرصة هذا التجمع فيوجه المحاربين ضد البريطانيين لإخراجهم من أرض المقيرة.

بالفعل أى طبقة من الطبقات فى مرتبة البطولة قبل أن تنتقل إلى الشيخوخة ؛ وإن كان هذا لا يمنع من أن يكون التكريس قائما طيلة هذه الفترة لتكوين الأرهاط والأفواج التى سوف تتألف منها الطبقة الجديدة . وعلى ذلك ، فإذا كانت الطبقات الجديدة تظهر على فترات معينة هى ذاتها « مدة الطبقة » المحاربة ، وإذا كانت هذه الطبقة المحاربة تتقاعد بعد تلك الفترة ذاتها وتنتقل إلى مرتبة اجتماعية أعلى ، فإنه يمكن القول إذن بحدوث زحزحة فى كل الطبقات المكونة للنظام على فترات مرسومة معينة وبالتالى حدوث تغير فى كل الأوضاع والمراكز الاجتماعية وكذلك الوظائف المتعلقة بكل طبقة من تلك الطبقات ؛ أى أنه تحدث نقلة إلى أعلى فى كل مكونات البناء الاجتماعى مع احتفاظ البناء ذاته بشكله وبالنسب القائمة بين تلك المكونات . ففى أى وقت من الأوقات يظل عدد الطبقات والعلاقات وأنماط السلوك بين تلك الطبقات ثابتة لا تتغير وإن كان الأفراد أنفسهم ينتقلون فى هيئة طبقة من مرتبة لأخرى ، وتتغير تبعا لذلك وظائفهم وواجباتهم وحقوقهم . والواقع أن ذلك التقدم الذى يحدث على فترات مرسومة دقيقة مع ثبات الصورة البنائية يؤلفان أهم مبدأين فى كل نظام طبقات العمر ، رغم ما قد يبدو بينهما من تناقض ظاهرى . فالطبقات كلها تنتقل من مرتبة إلى أخرى أعلى منها فى ترتيب تصاعدى كلما تكونت طبقة جديدة . ولكن العلاقات النسبية بين الطبقات التى تشغل مختلف المراتب تظل كما هى بدون تغيير . ويكفى فى تلك المجتمعات أن يذكر الشخص اسم الطبقة التى ينتمى إليها ليعرف وضعه فى المجتمع ولتعرف مكانته ومركزه بالنسبة لكل الأفراد الآخرين تبعا لانتمائهم إلى طبقات أعلى أو أدنى من الطبقة التى ينتمى إليها ، بغض النظر عن سائر الاعتبارات الأخرى . فاختلاف الطبقات يستتبع بالضرورة اختلاف المرتبة والمركز . والطبقة تعتبر فى أدنى مستويات التمايز الطبقى بعد تكوينها مباشرة ، وتصل إلى أعلى تلك المستويات حين تقترب نهايتها ، أى حين يموت معظم أفرادها بفعل السن وتكاد تختفى من الوجود . وكل فرد يعرف بالضبط مختلف المستويات التى تشغلها مختلف طبقات المجتمع

لأن مركزه هو نفسه مرتبط بذلك[1] . وهكذا يمكن القول إن المراتب أو المراكز الاجتماعية تحتفظ بعلاقات ثابتة فيما بينها ، بينما تنتقل طبقات العمر خلالها فتتحرك إلى أعلى ككل أو كوحدة متماسكة ، وتكتسب في أثناء هذه التنقلة أو الحركة إلى أعلى مكانة اجتماعية أكثر رقيا وسموا ، كما يفرض عليها القيام بواجبات والتزامات معينة وتتمتع بحقوق وامتيازات معلومة إزاء الطبقات الأخرى الداخلة في تكوين النظام كله . فارتباط كل طبقة من طبقات العمر إذن بمرتبة اجتماعية ما هو ارتباط مؤقت تختلف مدته من مجتمع لآخر . ويتحدد هذا الارتباط على العموم بما أسميناه « مدة الطبقة » من حيث أن تكوين طبقة جديدة ودخولها إلى مرتبة البطولة هو الذي يدفع طبقة المحاربين إلى مرتبة أعلى تشغلها طبقة أخرى تندفع بالتالي إلى مرتبة أعلى ، وهكذا .

٤

وتختلف عدد المراتب الاجتماعية التي تمر بها طبقة العمر الواحدة من مجتمع لآخر ، وإن كان هناك ميل عام إلى التمييز بين ثلاث مراتب أساسية هي البطولة والرجولة الكاملة والشيخوخة . وقليل من هذه المجتمعات يعتبر الطفولة مرتبة تشغلها الطبقة لفترة معلومة من الزمن[2] . ولكل مرتبة من هذه المراتب وظيفة خاصة بها . فالبطولة وظيفتها الحرب ، بمعنى أن الطبقة التي تشغل تلك المرتبة يعهد إليها بأمر شن الإغارات على معسكرات وحميات القبائل الأخرى المعادية لسرقة الماشية التي تلعب دورا هاما في الحياة الاجتماعية كلها علاوة على قيمتها الاقتصادية ، كما يوكل إليها — وحدها في الأغلب — القيام بالحروب الهجومية التي يقررها شيوخ العشيرة ،

---

(1) Bernardi : *op. cit.*, p. 321.

(٢) رأينا أنه في هذه الحالات القليلة لا ينظر إلى الصبيان غير المكرسين على أنهم يكونون طبقة بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، أي أنهم لا يعتبرون وحدة متماسكة متمايزة ولا تكون لهم وظائف اجتماعية معينة لأن الذي يكتسبهم هذا التمايز والتماسك هو التكريس .

وذلك بعكس الحرب للدفاعية التي يشترك فيها كل أفراد المجتمع القادرين على حمل السلاح بما فى ذلك النساء أحيانا : وترتبط مرتبة الرجولة الكاملة بالاشتغال بأمور الحياة المدنية والاقتصادية والسياسية . وأفراد الطبقة التى تشغل هذه المرتبة يدخلون — إلى جانب الشيوخ — فى تأليف مجالس الوحدات الإقليمية التى سبقت الإشارة إليها والتى تنظر فى المنازعات الداخلية وتحاول إنهاءها . أما مرتبة الشيخوخة فإنها ترتبط بوجه خاص بالوظيفة الدينية . فطبقات الشيوخ هى التى تشرف على أمور الدين وعلى الطقوس والشعائر باعتبارهم أكبر الأحياء سنا فى المجتمع وأقربهم بذلك إلى الموت وإلى العالم الآخر وأدناهم بالتالى إلى الآلهة . ولذا يلجأ الناس إليهم فى الملمات والأزمات ، كما يطلبون إليهم التحكيم فيما قد ينشب بينهم من خلافات ، ويقبلون آراءهم ويخضعون لمشورتهم ونصحهم نظرا لمكانتهم الدينية الممتازة .

ويذهب بعض العلماء إلى أن مرتبة البطولة هى أهم مرتبة فى هذا النظام من المراتب الاجتماعية ، وأن طبقة المحاربين الأبطال هى المفتاح الأساسى لفهم النظام كله ، وذلك على زعم أن نظام الطبقات يخدم فى أساسه وجوهره الوظيفة الحربية ، وأن الغرض الأول من تكوين الطبقات هو تزويد المجتمع بفئة متجددة من الأبطال المحاربين الذين لا غنى عنهم فى مثل هذه المجتمعات التى يغلب عليها الطابع الرعوى والتى يعتبر القتال والإغارات والحروب جزءا أساسيا من حياتها اليومية . وسوف نرى فيما بعد أن هذا الرأى ليس دقيقا تماما وإن كان لا يخلو من الصدق . ولكن طبقة الأبطال المحاربين لها مع ذلك أهمية خاصة بالنسبة لفهم ميكانيزم النظام وطريقة عمله ، لأن تكوين هذه الطبقة هو الذى يتحكم فى زحزحة الطبقات الأخرى الموجودة فعلا ، وبالتالى فى تعيين الوظائف الاجتماعية التى توكل إلى تلك الطبقات على ما رأينا .

ولقد ذكرنا أن التكريس يمارس فى العادة على الشباب فى سن الخامسة عشرة إلى العشرين ، وأن «مدة الطبقة» ، أى فترة البطولة وبالتالى المدة التى تمضى فى سائر المراتب الاجتماعية ، تقدر هى أيضا بحوالى خمسة عشر عاما . وهذا معناه أن الفرد يتخلى عن وظيفة الحرب فى حوالى الثلاثين من عمره ،

ثم يظل في مرتبة الرجولة الكاملة حتى الخامسة والأربعين تقريبا حين يحال إلى الشيخوخة التي يقضي فيها بقية حياته ، وإن كان يشغل مستوى جديدا في تلك المرتبة كل خمسة عشر عاما أي كلما تكونت طبقة عمر جديدة. وقد رأينا عند الكبسجيس مثلا ثلاث طبقات تحتل مرتبة الشيخوخة ولكل منها مستواها الخاص بالنسبة للطبقات الأخرى . بيد أن هذا هو النظام المثالي الصوري البحت الذي لا يمكن أن نأخذه بحرفيته وحذافيره ، ولكنه يكفي على أي حال لأن يعطينا فكرة تقريبية واضحة عن ميكانيزم النظام . فالواقع أن هناك اعتبارات كثيرة تتدخل في سير النظام بحيث تجعل من العبث محاولة وضع أي قاعدة حسابية يمكن الزعم بأن نظام طبقات العمر يتبعها بدقة . فتكريس الفتيان يخضع لكثير من الاعتبارات الخاصة . فالفتى الفقير يكرس في العادة في سن عالية نسبيا (حوالي العشرين) لعدم قدرته على تقديم الماشية اللازمة لتلك الحفلات والتي تنحر في مثل هذه المناسبات ، وذلك بعكس الحال فيما يتعلق بالفتى الأكثر ثراء وبخاصة إذا كان وحيد أبويه أو إذا مات أبوه وهو صغير ؛ إذ يسارعون في هذه الحالة بتكريسه في سن الثانية عشرة مثلا حتى يمكن له أن يحتل مركزه في المجتمع [1] . ومن ناحية أخرى كثيرا ما يستغرق التكريس فترة طويلة من الزمن قد تصل إلى بضعة أعوام ؛ وهذه الفترة لا تدخل ولا شك في الحساب ما دامت الطبقة لن تتمتع بكيان اجتماعي واضح متميز ولن ينظر إليها كوحدة متمايزة إلا بعد انتهاء التكريس بالفعل وبعد تقاعد طبقة المحاربين على ما ذكرنا . فكأن هذه الأعوام الخمسة عشرة التي تذكرها معظم الكتابات التي بأيدينا هي الفترة المثالية التي يفرضها هؤلاء الكتاب تعسفيا لفهم ميكانيزم النظام وعمله .

---

(١) يذكر لنا فوزيروك أن الختان عند الماساي يتم عادة في سن ١٦ أو ١٧ على الأقل ، ولكن الفتى اليتيم يكرس في سن أقل من ذلك كثيرا أي حوالي العاشرة أو الثانية عشرة من العمر حتى يمكنه القيام بواجباته الاجتماعية ، وهذا معناه أن يلتحق في الأغلب بفوج أكثر تبكيرا من ذلك الذي كان يجب أن يكرس فيه . وعلى العكس من ذلك تماما يذكر هوليس أن الفقراء واليتامى عند الماساي يكرسون في سن متأخرة وأعلى من المعتاد . وقد تتدخل درجة الثراء إلى جانب الأفراح التي يكرس فيها الفتيان ، فيذكر هيندي مثلا أن الختان لا يجرى عند الماساي=

وكذلك تختلف عدد الطبقات التي يشتمل عليها النظام باختلاف المجتمعات (١) . فنظام الكبسجيس والباندى مثلا يتألف من سبع طبقات تتتابع في الظهور والاختفاء على فترات زمنية معلومة ، ولهذه الطبقات أسماء ثابتة لا تتغير . ولما كانت مدة كل طبقة منها خمسة عشر عاما فإن الأسماء كلها تظهر في مر مائة وخمسة أعوام قبل أن تبدأ هذه الأسماء في الظهور من جديد على ما يبدو في الشكل التالي . ونظام طبقات العمر عند البوكوت الزراعيين يشتمل على ثماني طبقات متعاقبة وهكذا . ويعرف هذا النوع

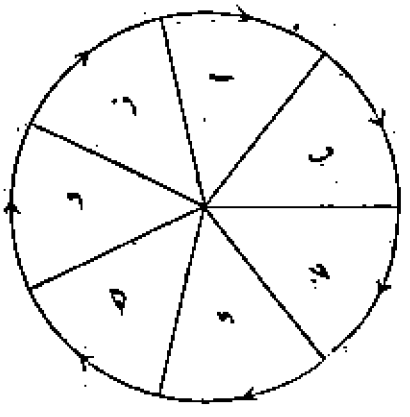

من نظام الطبقات باسم الطراز الدائرى cyclical type لأن عدد الطبقات فيه ثابت كما أن أسماءها ثابتة لا تتغير وتتتابع الطبقات في الظهور إحداها بعد الأخرى كما تختفي كل منها بموت أفرادها لتعود وتظهر مرة أخرى حين يكتمل ظهور الطبقات كلها . بيد أن هناك نوعا آخر من طبقات العمر

حقا على الفتيان الذين يبلغون درجة من التوافق تمكنهم من حمل السلاح (الحربة والقوس)، بينما يؤجل تكريس ضعاف البنية حتى يشتد ساعدهم . أنظر في ذلك :

Fosbrooke : *op. cit.*, p. 28; Hollis : *The Masai*, p. 262, n. 1; Hinde : *op. cit.*, p. 40.

(١) بل إن الكتاب المختلفين كثيرا ما يختلفون على عدد الطبقات الموجودة في نفس النظام الواحد وفي نفس المجتمع . مثال ذلك أن برسنيان يذكر أن نظام الطبقات عند الكبسجيس يشتمل على سبع طبقات عمرية ، بينما يذكر بارتون أن عددهم ١٢ طبقة أو مرحلة على ما يسميها ، ويذكر دوبز Dobbs أن نظامهم يتألف من ١٣ طبقة . وقد يكون هذا التضارب راجعا إلى الخلط بين (طبقات السن) والأفواج التي تتألف منها الطبقة الواحدة . والواقع أن مقارنة قوائم أسماء الطبقات والأفواج التي يعطيها إياها هؤلاء الكتاب الثلاثة تبين وقوع مثل هذا الخلط من جانب بارتون وهو بز . ولكن المجال هنا لا يسمح بتسجيل كل تلك القوائم الطويلة .

يطلق عليه اسم الطراز الاطرادى أو التقدى linear or progressive ، ولا يشتمل هذا النوع على عدد محدد بالذات من الطبقات كما أن الطبقات لا يكون لها أسماء ثابتة تتكرر ، وإنما تتخذ كل طبقة جديدة اسما جديدا لم يستخدم من قبل . والعادة أن يكون هذا الاسم مستمدا من إحدى خصائص الطبقة ذاتها أو قد يشير إلى أحد الأحداث التى وقعت أثناء تكوين الطبقة . وتتبع كل الشعوب الناطقة بلغة التاندى (الكيسجيس والتاندى والبوكوت والكيبو) وكذلك قبائل التسو والتوبوتا هذا الطراز الدائرى مع اختلاف فى عدد الطبقات . أما بقية الشعوب النيلوحامية فإن نظمها تتبع الطراز الاطرادى أو التقدى . ولعل الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هو قبيلة المانيارى التى رغم نظامها التقدى فإن أسماء طبقات الأجداد كثيرا ما تستخدم للأحفاد ، وإن لم يكونوا يتبعون فى ذلك نظاما محددا ثابتا دقيقا كما هو الحال فى الطراز الدائرى .

ويمتاز الطراز الدائرى من نظام طبقات العمر على الطراز الاطرادى بأنه يمكن التنبؤ فيه مقدما بالطبقة التى سوف يكرس الشخص فيها . فالانتماء الى طبقة معينة من طبقات العمر يتوقف إلى حد كبير على وقت الولادة وكذلك على الطبقة التى ينتمى إليها الأب . فالابن لا يكرس فى طبقة تالية لطبقة الأب ، وإنما لابد أن تفصل بينهما طبقة واحدة أو طبقتان تبعا لسن الابن ؛ بمعنى أن الأبناء الأوائل يصبحون أعضاء فى الطبقة الثانية بعد طبقة الأب ، بينما يكرس الأبناء الذين يولدون فى وقت متأخر فى الطبقة الثالثة . ولما كانت الطبقات فى هذا الطراز الدائرى تحتفظ بمواضعها من الدائرة وبنظام تعاقبها وبأسمائها ، فانه يصبح من السهل معرفة اسم الطبقة التى سوف يلتحق الابن بها بمجرد ولادته . فإذا كان الابن ينتمى إلى الطبقة رقم ١ مثلا فإن أبناءه ينتمون إلى الطبقة رقم ٣ أو رقم ٤ بحسب ترتيب ولادتهم[1] .

---

(١) يذكر جليفر أن الرجل النبى عند التركانا يتزوج فى العادة عددا كبيرا من النساء الصغيرات السن وعلى فترات متفاوتة وبذلك ينجب منهن عددا كبيرا من الأبناء الذين تفصل =

ولهذه النقطة الأخيرة بعض الأهمية من الناحية النظرية . ذلك أنه إذا كان التكريس يحدث عادة فى سن الخامسة عشرة إلى العشرين وإذا كان الرجل يكرس فى الطبقة الثانية أو الثالثة بعد تلك التى ينتمى إليها أبوه فإن هذا معناه أنه سوف ينتمى إلى الطبقة الرابعة أو السادسة بعد تلك التى ينتمى إليها جده . ولما كانت مدة الطبقة هى فى العادة حوالى خمسة عشر عاما إلى عشرين عاما فإن الفترة التى تفصل بين طبقة الجد وطبقة الحفيد تتراوح بذلك بين ٦٠ — ٨٠ سنة ؛ وهذا فى حالة الأبناء الأوائل فقط ، لأن هذه الفترة تتسع فى الأغلب فى حالة الكلام عن الأحفاد الذين يولدون متأخرين من زيجات متأخرة . وعلى ذلك فإنه فى الوقت الذى يبدأ فيه تكريس الأحفاد (فى سن الخامسة عشرة أو العشرين) للدخول فى طبقة عمر جديدة نجد أن أعمار الأجداد تتراوح بين الخامسة والسبعين والمائة (١٥ — ٢٠ + ٦٠ — ٨٠) أو أكثر من ذلك إذا قسنا الفترة بين الأجداد والأحفاد المتأخرين . وليس من المحتمل أن يعيش الرجل فى تلك المناطق القاسية وتحت تلك الظروف المرهقة إلى مثل تلك السن العالية . وعلى ذلك فإنه يمكن القول إنه فى الوقت الذى يكرس فيه الأحفاد لتكوين طبقة عمر جديدة لن يكون هناك — على أحسن الفروض — إلا أفراد قلائل من طبقة الأجداد ، ولن يكون لهؤلاء الأفراد القلائل من الأحياء دور كبير واضح فى الحياة الاجتماعية . أى أن طبقة الأجداد لن تكون فعالة أو ذات أثر محسوس فى المجتمع . فالعبرة هنا بالوجود الاجتماعى وليس بالوجود الفيزيقى . وهذا معناه أنه فى الوقت الذى تختفى فيه طبقة عمر الأجداد أو تتضاءل قيمتها وأهميتها الاجتماعية تظهر طبقة الأحفاد كوحدة اجتماعية فعالة فى الحياة الاجتماعية . ويظهر ذلك بجلاء

= بين أعمارهم فترات طويلة من الزمن مما يتيح لهم الالتحاق بعدد من الأفواج والانتماء إلى طبقتين متتاليتين وليس إلى طبقة واحدة . أى أن البعد الاجتماعى بين طبقة الرجل وطبقة أبنائه الصغار من زيجاته الأكثر حداثة تكون أوسع وأكبر مما تسمح به القاعدة العامة . راجع :

Gulliver : *Survey*, p. 130; Peristiany : *The Kipsigis*, p. 7; Stigand : *op. cit*, pp. 212—13.

فى المجتمعات التى يتألف نظام طبقات العمر فيها من طبقتين فقط تنتظم كل طبقة منهما جميع أفراد الجيل الواحد كما هو الحال عند البوكوت الرعاة ، وكذلك فى نظم طبقات العمر الاطرادية أو التقدمية . فعند البوكوت الرعاة مثلا نجد أن طبقة العمر (التى تعرف باسم sapana) تنتظم فى الواقع جميع أفراد الجيل الواحد . والمجتمع لا يعترف بها رسميا إلا بعد اختفاء طبقة الأجداد عن طريق موت أعضاء هذه الطبقة أو موت معظمهم على الأقل ، ثم تأخذ هذه الطبقة الجديدة اسم الطبقة التى اندثرت . وهكذا الحال فى كثير من المجتمعات الاطرادية حيث تطلق على طبقة الأحفاد اسم طبقة الأجداد ، ولا يكون ذلك الا بعد اختفاء هذه الطبقة الأخيرة من مسرح المجتمع ، أى أن طبقة الأحفاد وطبقة الأجداد ، وهما تحملان نفس الاسم ، لا يمكن أن توجدا كوحدتين متماسكتين معا فى نفس الوقت . ومما يؤسف له حقا أنه ليست لدينا معلومات كافية تسمح لنا بفحص هذه النقطة فحصا دقيقا عند كل الشعوب التى تعرف نظام طبقات العمر ، خاصة وأن بعض هذه النظم لم يعد يتبع الآن أى مبدأ زمنى ثابت وإنما تتكون طبقة العمر كلما وجد هناك عدد كاف من الفتيان الصالحين ، وإن كانت هذه القاعدة تصدق لدى كل الشعوب التى تتبع مبدأ زمنيا دقيقا فى تكوين طبقاتها كما هو الحال عند الكيسجيس والناندى والماساى ؛ فهى كلها تتفق فى عدم احتمال وجود طبقتى عمر الأجداد والأحفاد معا وظهورهما كوحدتين اجتماعيتين وظيفيتين . وقد تكون هذه النقطة علاقة بالاعتقاد السائد فى كثير من المجتمعات من أن الأحفاد يعتبرون بديلا من الأجداد ولذا يتسمون بأسمائهم حتى يحتفظ المجتمع بكيانه عن طريق تجدد الأجيال . ولكن هذا موضوع آخر ليس هنا مجال مناقشته .

والخلاصة من هذا كله هو أن نظام طبقات العمر الذى يتوزع أعضاء المجتمع بمقتضاه فى طبقات متمايزة بحسب السن يتيح لكل فرد فى المجتمع المشاركة فى وظائف الحياة الاجتماعية الكبرى حسب نظام محكم دقيق فى جملته وتبعا لقدراتهم الجثمانية وكفايتهم الذهنية وما يكتسبونه من خبرة وتجربة نتيجة لتقدمهم فى السن ؛ كما يتيح لكل فرد أيضا الانتقال — ضمن

جماعة متماسكة من الزملاء والقرناء — والترقى فى مختلف المراتب الاجتماعية تبعا لتوقيت مرسوم معلوم ، وذلك إذا تغاضينا عن بعض الانحلالات والفوارق الزمنية الطفيفة التى تجد سبيلها إلى ذلك النظام نتيجة للعوامل التى سبق ذكرها . وهذا ينقلنا إلى الحديث عن وظيفة النظام فى تلك المجتمعات .

٥

دراسة وظيفة أى نظام من النظم الاجتماعية معناها ببساطة واختصار معرفة معنى هذا النظام والدور الذى يؤديه فى البناء الاجتماعى كله . وعلى ذلك فلكى نفهم وظيفة نظام طبقات العمر فى المجتمعات النيلوحامية سوف نحتاج إلى أن نتذكر دائما أهم الملامح البنائية التى تميز هذه المجتمعات من أنها مجتمعات انقسامية يقوم بناؤها الاجتماعى على أساس الانقسامات الإقليمية المتعددة ، ولا تلعب العشائر أو البدنات فيها دورا سياسيا واضحا نظرا لانتشار أفرادها وتبعثرهم فى جميع أنحاء أرض القبيلة كما ينقصها وجود أى جهاز إدارى تنفيذى فعال .

ولعل أول ما يتضح للأذهان مما قلناه فى الأجزاء السابقة من هذه الدراسة هو أن نظام طبقات العمر هو طريقة ينقسم بها المجتمع إلى عدد من الطبقات التى تقوم على أساس التقارب فى العمر والتى يحتل كل منها مكانا معلوما فى السلم الاجتماعى ، أى أن النظام يعمل فى تلك المجتمعات كمبدأ للتمايز أو للتفاضل الاجتماعى social differentiation بمقتضاه يتوزع سكان المجتمع الواحد من الذكور بين عدد معين من المستويات و المراتب الاجتماعية بحيث تعتبر كل فئة منهم وحدة مستقلة ومتمايزة عن غيرها من الوحدات ، وتسلك فى نفس الوقت إزاء تلك الوحدات الأخرى سلوكاً معيناً عليها مركزها فى ذلك السلم الاجتماعى أى أن سلوكها يكون محكوماً بمبدأ التفاوت الاجتماعى المبنى على التفاوت فى العمر . وهذا صحيح فى جملته ولا ريب . فقد رأينا أن طبقات العمر ترتبط ارتباطا وثيقاً بمراحل العمر وتتوزع بينها وأن كل طبقة منها تقف تبعاً لذلك فى مركز أعلى وأسمى من كل الطبقات التى تكونت بعدها فى الزمن ، كما تعتبر نفسها فى الوقت ذاته

أقل وأدنى منزلة من كل الطبقات التى سبقتها فى التكوين والظهور . وهذا معناه أن كل طبقة تحتل مركزا ثانوياً ليس فقط بالنسبة لتلك الطبقات التى تمثل مراحل العمر العليا ، بل وأيضاً الطبقات التى تشغل المستويات الأعلى من نفس مرحلة العمر ، وتكون بذلك مطالبة بالخضوع وإبداء الاحترام لها ، بينما هى تمارس شيئاً من النفوذ والسيطرة وتبدى نوعاً من السيادة ومن التعالى على الطبقات التى تليها . فالتوزع الطبقى على أساس العمر ينظم إذن سلوك الطبقات إزاء بعضها بعضاً. والواقع أن الشبان يتلقون أثناء حفلات تكريسهم بعض الدروس والتوجيهات المتعلقة بنوع السلوك الذى يجب أن يصدر عنهم إزاء الطبقات التى تعلو الطبقة التى سوف ينتمون إليها ، وكذلك ازاء الطبقات التى سوف تأتى دون طبقتهم فى المنزلة . كذلك يرتبط هذا التوزع الطبقى القائم على مبدأ العمر ارتباطا وثيقا بمسألة توزع الوظائف المختلفة فى المجتمع ؛ أى أن هناك علاقة قوية بين التفاوت فى طبقات العمر والتفاضل فى الوظيفة (١) . فالوظائف الاجتماعية المختلفة ، من حربية وقضائية وشعائرية — توزع هناك فى الواقع على أساس طبقة العمر وليس على أساس أى زمرة اجتماعية أخرى كالعشيرة أو البدنة أو العائلة مثلا ، بمعنى أننا لن نجد عائلة أو عشيرة معينة تتركز فيها أى وظيفة من هذه الوظائف ويتوارثها أبناؤها جيلا من جيل . وإنما تقوم الطبقة المؤلفة من أفراد ينتمون إلى جميع العائلات والبدنات والعشائر بتلك الوظيفة فى فترات معينة من حياتها تتوقف على مكان الطبقة فى النظام كله وعلى مرحلة العمر التى يمر بها أفراد هذه الطبقة . فالطبقة الواحدة تقوم بالوظيفة الحربية بمجرد تكوينها وإدخالها إلى مرتبة البطولة ؛ ثم تقوم بالوظيفة القضائية بعد تقاعدها وتنازلها عن الوظيفة الحربية وهكذا . وهذا معناه أيضا أن كل طبقة تتمتع فى النظام كله بنوع معين من (السلطة) ، كما يكون لها امتيازاتها وحقوقها وواجباتها الخاصة التى تتفق وتتماشى مع المركز الاجتماعى الذى تشغله والمرتبة التى تحتلها .

---

(١) Bernardi : *op. cit*; *Africa*, XXII, p. 322.

ومما يؤسف له حقا أن مسألة توزع السلطات والوظائف لم تدرس دراسة وافية حتى الآن فى أى من المجتمعات التى نعرض لها هنا بالدراسة ، وذلك إذا استثنينا مسألة ارتباط طبقة الأبطال بالوظيفة الحربية . والواقع أن معظم الكتاب الذين درسوا نظام طبقات العمر ينظرون إليه على أنه نظام حربى فى الأصل ، وظيفته الرئيسية هى تزويد المجتمع بالمحاربين . وقد يكون لهذه النظرة ما يبررها ؛ فقد رأينا أن التكريس عند الشعوب النيلوحامية يهدف إلى إدخال الفتيان إلى مرتبة البطولة التى ترتبط بالحروب والإغارات ؛ كما أنه من الملاحظ أن النظام كله بدأ يتهدم تحت الحكم الاستعمارى الأوربى وبعد أن منعت الحروب والإغارات بين القبائل مما لم يعد معه ثمة جدوى أو فائدة من قيام نظام طبقات العمر . وقد يستدل من ذلك على أن النظام كان يخدم فى الأصل غايات حربية وعسكرية . إنما يوجد إلى جانب ذلك شىء من التلازم والترابط بين طبقات العمر وبقية مظاهر النشاط الاجتماعى الأخرى لم تكد الكتابات التى بأيدينا تعرض لها بالتفصيل . فالوظيفة القضائية والوظيفة الشعائرية وممارسة الطقوس الدينية والسحرية والإشراف على الحياة الاقتصادية وتوجيهها لم تكن كلها من واجبات طبقة المحاربين الأبطال ، وإنما هى تنحصر دائما فى طبقات الشيوخ أو الطبقات التى تعتزل البطولة والحرب ؛ وإن كنا لا نستطيع من المعلومات التى تحت أيدينا أن نزعم أن طبقة معينة بالذات من هذه الطبقات المتقاعدة تحتكر لنفسها الوظيفة القضائية مثلا كما يحتكر الأبطال الوظيفة الحربية ، وإن كنا نستطيع القول إن الطبقات المتقاعدة تشارك كلها فى القيام بالواجبات القضائية والاقتصادية وتشارك فى مجالس الأقاليم ، بينما يمارس أكبر الشيوخ سنا مسائل السحر والدين وما إليها باعتبارهم أقرب الأحياء إلى الآلهة على ما ذكرنا من قبل . فالارتباط بين طبقات العمر ومختلف أنواع النشاط الاجتماعى ليس واضحا — رغم وجوده — إلا فى حالة طبقة المحاربين والحرب . والواقع أن طبقة العمر تفقد كثيرا جدا من تماسكها وتماسكها وتضامنها بعد التقاعد والركون إلى الحياة المدنية الخاملة المسالمة . أضف إلى ذلك أنه ليس من المعقول أن تمارس الطبقة كلها كوحدة الوظيفة القضائية أو الشعائرية على ما نرى

فى حالة المحلوبين والحرب ، إذ يتدخل هنا العامل الشخصى الذى يميز أفراداً على غيرهم ويؤهلهم من دونهم للقيام بهذه الوظائف والسلطات (١) .

والذى يهمنا من هذا كله هو أنه بمقتضى ذلك النظام يتوزع السكان إلى وحدات عمرية محددة تحتفظ كل وحدة منها باستقلالها وتمايزها عن الطبقات الأخرى . فأفراد كل طبقة من هذه الطبقات يعتبرون أنفسهم متساوين فى المركز وفى العمر الاجتماعى على السواء ، ويرتبطون بعضهم ببعض بروابط قوية قوامها وحدة الشعور والنشاط المشترك والتعاون فى الحياة اليومية والتساوى فى الحقوق والامتيازات والواجبات . وينعكس هذا التماسك والتمايز فى عدد من المظاهر الخارجية . فلكل طبقة أولاً اسم خاص بها يلازم أفراد الطبقة طيلة حياتهم وينتقل معهم فى انتقالهم خلال المراتب الاجتماعية المختلفة ، كما يلعب فى الحياة اليومية دورا أهم بكثير من اسم العشيرة أو البدنة ، وذلك نظرا لدرجة التماسك القوى الذى يخلقه هذا الاسم بين جميع أفراد الطبقة المنتشرين فى كل أقسام أرض القبيلة . ويتمثل هذا التمايز والتماسك ثانيا فى وجود متندى أو عدد من المتنديات الخاصة بكل طبقة بحيث لا يسمح بالدخول فيها لغير أفراد تلك الطبقة ؛ وإن كانت هناك بعض مجتمعات لا تعرف نظام المتنديات . والأصل فى هذه المتنديات أنها تقام للأبطال المحاربين ليلتقوا فيها أثناء « مدة الطبقة » وقبل تقاعدهم وانصرافهم إلى شئون الحياة المدنية . ويقام المتندى فى العادة على أساس أصغر الوحدات الإقليمية ، أى على أساس وحدات الدرجة الثالثة ؛ ولكن قانون الطبقة يعطى لكل عضو من أعضائها الحق فى النزول فى كل متنديات طبقته التى تنتشر فى جميع أنحاء القبيلة ، وهناك يجد من (إخوانه) فى الطبقة كل عون وإكرام حتى وإن لم يكن ثمة تعارف سابق بينهم . ولكن الشخص لا يقطع علاقته بهذه المتنديات بعد التقاعد بل يزورها من حين لآخر وينزل بها أثناء رحلاته وتجواله (٢) .

---

(١) Peristiany : *The Kipsigis*, pp. 216—17; Gulliver : *Survey*, p. 132.

(٢) Peristiany : *The Kipsigis*, pp. 40—1; Leakey : *op. cit*; *J. R. A. I*, LX, p. 195; Hollis : *The Masai*, p. 77.

والمظهر الثالث من مظاهر تماسك الطبقة هو تعاون أفرادها وبخاصة فى أوقات الشدة وفى أثناء الأزمات والمجاعات ، هذا بالإضافة إلى ما يفرض عليهم من قواعد حسن الضيافة لأفراد طبقتهم ومعاونتهم لهم فى أعمالهم العادية اليومية . والواقع أن التكريس ذاته يوجد بين أفراد الطبقة الواحدة — وبخاصة بين هؤلاء الذين كرسوا معا فى نفس الحفل — نوعا من العلاقات والروابط القوية المتينة التى قد يبلغ من قوتها ومتانتها أن تعتبر مماثلة لروابط القرابة الدموية . فأفراد الطبقة يشعرون كأن بينهم شيئاً من الأخوة الروحية ، بل إنهم يستعملون بالفعل كلمة (أخ) فى الإشارة أحدهم للآخر ، كما يحرم عليهم الزواج من بنات (إخوانهم) فى الطبقة لأنهن يعتبرن بنات لهم والزواج منهن يكون على هذا الأساس أقرب إلى الزنى بالمحارم incest . من أجل ذلك كنا نجد أنه حين يرتكب أحدهم جريمة ويحكم عليه بالغرامة مثلا فان جميع أفراد طبقته يساهمون فى دفعها كما يشاركون فى دفع الدية حين يرتكب أحدهم جريمة القتل ؛ بل ان أفراد الطبقة كثيراً ما يساهمون فى دفع (ثمن العروس) أو المهر حين يتزوج أحدهم كما يحدث عند قبائل البارى مثلا[1] . ويظهر هذا التعاون حتى فى المجتمعات والقبائل الرعوية التى لا يكاد أفراد الطبقة الواحدة فيها يجتمعون معا إلا فى القليل النادر . وليست قواعد الضيافة والتعاون المتبادل والتساند بين أفراد الطبقة مجرد التزامات تعاقدية يدخلها الفرد حرا مختارا ويخرج منها حين يشاء أو أنها تنتهى بتنفيذ ما يتعاقد أعضاء الطبقة عليه ، انما هى فى الحقيقة التزامات اجتماعية تُفرض على الطبقة فرضا ولا سبيل إلى التحرر منها ، ولا تسقط عنهم على الإطلاق .

ولكن على الرغم من أن أعضاء طبقة العمر الواحدة يعتبرون أنفسهم متساوين ويُنظر إليهم من خارج على هذا الأساس ، فإن الشعور بالقرب الاجتماعى لا يكون على نفس الدرجة من القوة بين الأشخاص الذين ينتمون إلى مختلف الأفواج والأرهاط ؛ وإنما يكون أقوى بين أفراد الرهط الواحد ،

(1) Seligman : *Pagan Tribes*, p. 263; Gulliver : *Survey*, pp. 137—8; Peristiany : *The Kipsigis*, p. 39.

أى بين الأشخاص الذين يكرسون معا ، عنه بين أعضاء الأرهاط المختلفة للذين ينتمون إلى نفس الفوج ، كما أنه يكون أشد وأقوى بين أعضاء الفوج الواحد (بكل أرهاطه) عنه بين أعضاء الأفواج المختلفة فى الطبقة الواحدة . أى أن التفاضل الاجتماعى القائم على أساس العمر لا يوجد بين الطبقات فحسب وإنما تمتد جذوره إلى داخل الطبقة ذاتها نتيجة لانتماء أفرادها إلى أرهاط وأفواج مختلفة بحسب ترتيبهم وأولويتهم فى التكريس . ويراعى هذا التفاوت الطبقى فى الاجتماعات العامة والحفلات الشعائرية التى تمثل المجتمع فيها بكل طبقاته . فالعادة فى مثل هذه الحفلات العامة أن أعضاء المجتمع يجتمعون فى شكل نصف دائرة بحيث يجلس أفراد طبقة العمر العليا أولا وتجلس بقية الطبقات إلى يسارها حسب منزلتها الاجتماعية . وفى كل طبقة يجلس أفراد الفوج الأعلى — أى الذى تكون أولا — إلى اليمين ثم تترتب الأفواج الأخرى إلى يساره حسب منزلتها أيضا ، وكذلك الحال فى أرهاط الفوج الواحد . بل إن الأمر قد يصل إلى أبعد من ذلك فى بعض القبائل ، إذ نجد نفس التفاوت قائما حتى بين أفراد الرهط الواحد ، لأن الأسبقية فى التكريس تكسب صاحبها مكانة ممتازة على أقرانه فى نفس الرهط ، ولن يستطيع الشخص أن يحتل فى الرهط — وبالتالى فى الطبقة العمرية كلها — مستوى أعلى من ذلك الذى اكتسبه وقت التكريس إلا بموت الأشخاص الذين يشغلون ذلك المستوى الأعلى ، أى أن الشخص لا يمكنه بحال أن يحتل فى الحياة الاجتماعية مكانة أكثر امتيازا من تلك التى يتمتع بها أى شخص آخر سبقه فى التكريس[1] .

وقد يدفع هذا القول إلى الظن بأن هذه الطبقات العمرية المتمايزة تقسم المجتمع أقساما مغلقة على ذاتها تماما بشكل تنعدم معه كل الروابط والعلاقات الاجتماعية فى الحياة اليومية . ولكن هذا غير صحيح . فرغم ما تبديه الطبقة العمرية من تماسك وتضامن ، ورغم ما يقوم بين الطبقات من تفاوت

(1) Peristiany : "The Age-Set System of the Pastoral Pokot", *Africa*, XXI, p. 285; Gulliver : *Survey*, p. 129.

فى الوظيفة وتفاضل فى المركز الاجتماعى فإن هناك علاقات قوية من الاعتماد المتبادل والتساند والتعاون تربط هذه الطبقات إحداها بالأخرى رغم ما يقوم بينها من ذلك التباعد الاجتماعى الذى تكلمنا عنه .

وتظهر هذه العلاقات بأجلى مظاهرها فى موقفين هامين من مواقف الحياة الاجتماعية فى تلك القبائل ، الموقف الأول هو حالة التكريس لتكوين طبقات جديدة ، والموقف الثانى هو حالة الحرب الدفاعية . فأما فيما يتعلق بالموقف الأول فإننا ذكرنا أن تكوين الطبقة الجديدة التى سوف تحتل مرتبة البطولة لا يتم إلا بموافقة طبقة الشيوخ ، أو أعلى طبقة من طبقات الشيوخ فى حالة تعدد هذه الطبقات فى المجتمع ، وأن الفتيان أنفسهم هم الذين يلجأون إلى شيوخ العشيرة طالبين إليهم الإذن بالتكريس . ويخضع الفتيان أثناء شعائر التكريس ذاتها وفى خلال المدة التى تستغرقها تلك الشعائر لنوع من الإشراف يقوم به أفراد الطبقة التى ينتسب إليها آباؤهم ، كما أنهم يتلقون كثيرا من التعاليم والتوجيهات والدروس التى تتعلق بنوع السلوك المنتظر منهم بعد التكريس ، وتتعاون طبقات الشيوخ كلها فى هذه المهمة التربوية . وبذلك نجد أن طبقات الآباء والأجداد تتعاون كلها إذن بشكل أو بآخر فى تكوين الطبقة الناشئة وإعدادها وتأهيلها للحياة الاجتماعية الجديدة . وأما فيما يتعلق بالحرب ، فقد رأينا أن الحرب الدفاعية تتطلب اشتراك كل طبقات المجتمع العمرية للذود عن أرض القبيلة بغض النظر عن وظائف هذه الطبقات فى الحياة العادية . بل إننا نجد أنه فى حالة الحروب الهجومية أو الإغارات التى هى وظيفة طبقة الأبطال المحاربين لا يمكن لهذه الطبقة شن اغاراتهم إلا بعد استئذان شيوخ العشيرة وتلقى بركاتهم ودعواتهم التى تعتبر عنصرا أساسيا هاما لنجاح الإغارة أو الحملة . والواقع أن الانتصار فى الحرب ونجاح الحملة أو فشلها هو مسئولية الرؤساء الشعائريين أو السحرة ورجال الدين قبل كل شىء . فرجال السحر والدين هم الذين يعينون الوقت الملائم للحرب الناجحة وهم الذين يضمنون بذلك نجاح الحملة وانتصارها . ويذكر لنا فوزبروك أن الماساى قتلوا أحد كبار رجالهم الشعائريين حين فشلت

إحدى حملات طبقة المحاربين بعد أن كان تنبأ بنجاحها [1] . ومن ذلك نرى أن أحداث الحياة الكبرى تحتاج إلى تماسك الطبقات العمرية المختلفة وتآزرها رغم ما بينها من اختلاف وتفاوت .

ولكن هذا ليس كل شيء . فللنظام وظيفة أخرى أبعد أثرا من ذلك بكثير فيما يتعلق بالتماسك الاجتماعي . فنحن نذكر مثلا أن التكريس ، وبالتالي تكوين الأرهاط ، يتم في الأغلب على أساس أصغر الوحدات الإقليمية أي أقاليم الدرجة الثالثة . وأن هذه الأرهاط المختلفة لا تلبث أن تندمج كلها لتكون أفواجا ثم طبقة واحدة بعد ذلك لها اسم واحد يصدق على كل أفراد الطبقة دون اعتبار للأرهاط أو الأفواج أو حتى الوحدات الإقليمية السياسية التي ينتمون اليها . أي أن حدود الطبقة الواحدة تتعدى الحدود السياسية الإقليمية نظرا لأن أفراد الطبقة الواحدة يكونون منتشرين في كل أنحاء أرض القبيلة ، ونظرا لأن قوانين الطبقة التي تحتم قيام التعاون بين أفرادها وبذل العون والمساعدة وحسن الضيافة تصدق على الجميع ، ونظرا أيضا لأن أفراد الطبقة جميعا يخضعون لنفس قواعد السلوك فيما يتعلق بمعاملاتهم بعضهم لبعض أو بمعاملاتهم مع الطبقات الأخرى . فكأن طبقة العمر يمكن اعتبارها إذن عاملا من عوامل الجذب ، يجذب الوحدات الإقليمية المستقلة سياسيا إحداها إلى الأخرى ويوجد بينها نوعا من التماسك والتضامن القائم على تعاون أفراد الطبقة . أي أن طبقة العمر ، وبالتالي النظام كله يمكن اعتباره مبدأ من مبادىء التماسك الاجتماعي هناك .

كذلك نحن نذكر ما سبق أن قلناه من عدم تمركز العشيرة أو توطنها في إقليم واحد بالذات وانتشار أفرادها وتوزعهم في كل الأقسام الإقليمية مما يضعف من قيمة العشيرة والبدنات من الناحية السياسية ويقصر وظيفتها على تنظيم الزواج حسب قواعد الإكسوجامية والطوطمية ، ويجعل علاقات الجوار أهم بكثير من روابط القرابة . ولما كانت طبقة العمر تنتظم أفرادا

---

(1) Fosbrooke : *op. cit*, pp. 15—16.

ينتمون إلى كل الوحدات الإقليمية على أساس التقارب العمرى وحده ، ولما كانت العشيرة الواحدة تنتشر فى كل الوحدات الإقليمية فإنه يمكن القول إن نظام طبقات العمر يقطع حدود العشيرة ويتعداها ، أى أنه يعيد تقسيم أفراد العشيرة الواحدة على أساس جديد (عامل السن) يختلف تمام الاختلاف عن الأساس القرابى (أى الانحدار من جد واحد) الذى تنقسم العشيرة بمقتضاه إلى بدنات وعائلات ، بحيث نجد فى النهاية أن الطبقة الواحدة تتألف من عدد من الأفراد ينتمون إلى مختلف البدنات المكونة للعشيرة الواحدة ، بل وأيضا مختلف العشائر المنتشرة فى أرض القبيلة . أضف إلى ذلك أن تكوين طبقة العمر معناه فى الحقيقة التحاق الفرد بجماعة أكبر وأوسع من الجماعة التى ولد فيها (أى العائلة) أو التى ينتمى اليها عن طريق انحداره من جد معين (أى البدنة والعشيرة) ، كما يعنى توسيع دائرة معارفه ودائرة نشاطه الاجتماعى ما دام أصبح عضوا فى جماعة أكبر من الجماعات التى تقوم على مجرد روابط القرابة . ومن هذه الزاوية أيضا يعتبر نظام طبقات العمر مبدأ من مبادىء التماسك الاجتماعى نظرا لتعديه كل حدود

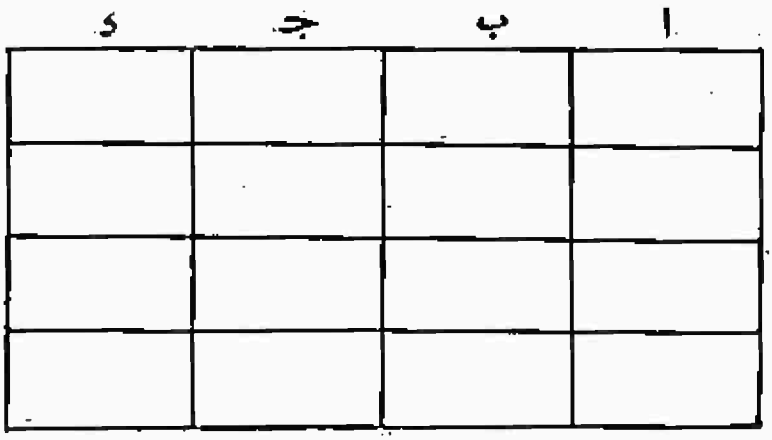

ا ، ب ... وحدات إقليمية
١ ، ٢ ... طبقات عمر أو عشائر

القرابة وقيودها . وهكذا نجد أن هذا النظام يقرب بين الأفراد الذين تباعد بينهم الحدود الإقليمية والسياسية من ناحية والروابط القرابية الضيقة من ناحية أخرى على ما يظهر فى الشكل التالى . أى أنه يخفف من حدة المبدأ الانقسامى الذى ينقسم المجتمع بمقتضاه إلى وحدات سياسية متمايزة ومستقلة تمام الاستقلال بعضها عن الأخرى ويؤدى بذلك إلى تراخى المجتمع كله . ومن هنا يمكن

اعتبار نظام طبقات العمر عاملا من أهم عوامل التماسك والتضامن الاجتماعى فى تلك المجتمعات الانقسامية إن لم يكن هو العامل الوحيد . بل الأكثر من ذلك أن طبقة العمر قد تتعدى الحدود القبلية ذاتها كما هو الحال عند الشعوب الناطقة بلغة النانداى ، أو بقول أدق ، عند النانديي والكبسجيس الذين يوجد عندهم نفس العدد من طبقات العمر بنفس الأسماء على ما ذكرنا . وعلى ذلك فإن الرجل من الكبسجيس يمكنه أن يكرس عند النانديي والعكس بالعكس ، أى أن الرجل الذى ينتمى الى طبقة عمر معينة عند إحدى القبيلتين يمكنه أن يلتحق بسهولة بطبقة العمر الموازية عند القبيلة الأخرى . ولكننا لا نعرف إن كان هذا يصدق أيضا على قبيلتى الكيبو والپوكوت اللتين تنتميان إلى نفس المجموعة من الشعوب واللتين لهما نفس النظام ونفس الأسماء ؛ وإن كان نظام الپوكوت يزيد طبقة على عدد الطبقات الموجودة فى بقية شعوب المجموعة . ولكن لو صح ذلك لكان النظام عاملا للتماسك الاجتماعى الحق ، ليس فقط فى كل مجتمع على حدة ، بل وأيضا فى كل المجموعة النانديه .

٦

ونستطيع أن نجمل كل ما قلناه فى هذه الدراسة فى النقط القليلة التالية :

١ — كان هدفنا من هذا البحث هو معرفة مدى صلاحية نظام طبقات العمر لأن يكون عاملا من عوامل التماسك أو التضامن الاجتماعى فى المجتمعات الانقسامية البسيطة التكوين التى لا تؤلف دولة . وقد دعانا ذلك إلى وصف البناء الإقليمى السياسى لعدد من تلك المجتمعات التى تفتقر إلى وجود أى تنظيم حكومى واضح أو أية سلطة مركزية فعالة . وقد أمكن التمييز فى هذه المجتمعات الانقسامية بين فئتين : الفئة الأولى تشمل الپوكوت الزراعيين وقبائل الماندارى والبورونجا التى يؤدى نظام البدنات الانقسامية عندهم وظيفة سياسية واضحة ؛ والفئة الثانية تشمل بقية المجتمعات النيلوحامية التى لا تلعب العشيرة أو أقسامها أى دور سياسى فيها . وقد رأينا أن نظام طبقات العمر هو النظام الاجتماعى الوحيد الذى يتخطى كل حدود

هذه الأقسام الإقليمية والقرابية وبذلك يربط أقسام المجتمع وشعبه بعضها ببعض — على الأقل فى مجتمعات الفئة الثانية — رغم أنه هو نفسه مبدأ للانقسام الاجتماعى على أساس السن .

٢ — وقد أشرنا إلى تقصير معظم الكتاب والعلماء الذين درسوا نظام طبقات العمر فى تبيين المهمة التى يقوم بها هذا النظام لتكامل المجتمع وتماسكه وترابطه ، وأن معظم همّ هؤلاء الكتاب كان منصرفا إلى توكيد وظيفته الانقسامية . كذلك يلاحظ أن هؤلاء الكتاب قصروا تقصيرا شديدا فى تبيين العلاقة بين هذا النظام وبقية النظم الاجتماعية التى تؤلف كلها البناء الاجتماعى لتلك المجتمعات . ولقد رأينا أن كل طبقة من هذه الطبقات وبالتالى كل عضو فى المجتمع يحتل مكانة معينة خاصة فى بناء النظام كله بالنسبة للطبقات الأخرى وبالنسبة لأفراد المجتمع الآخرين ، وهذا معناه أن المركز الاجتماعى والسلطة فى هذه المجتمعات — أو على الأقل فى مجتمعات الفئة الثانية — يقومان على أساس السن وليس على أساس أى من الزمر الاجتماعية الأخرى كالعشيرة أو البدنة . أى أن النظام يعمل فى تلك المجتمعات كمبدأ لتنظيم كل أنواع النشاط الجماعى ، ويستوى فى ذلك النشاط الحربى أو القضائى أو الشعائرى .

٣ — يذهب معظم الكتاب إلى أن الغاية الأساسية من نظام طبقات العمر هى غاية حربية وأن وظيفته هى تزويد المجتمع بطبقة من المحاربين الأبطال . وليس ثمة شك فى أن النظام يخدم هذه الغاية فى بعض المجتمعات . ولكن من الخطأ ومن الخطر أيضا أن نزعم أن للنظام — أى نظام — وظيفة واحدة اجتماعية ثم نعتبرها هى أهم الوظائف ، خاصة إذا كانت هذه الوظيفة وظيفة جزئية نسبيا مثل تزويد المجتمع بالمحاربين الأبطال . فبعض نظم طبقات العمر ليس لها أى مظهر عسكرى أو حربى كما هو الحال فى مجموعة الشعوب الناطقة بلغة الباري . ومع ذلك فإن من الخطأ أيضا أن نحاول التقليل من أهمية الوظيفة الحربية للنظام وبخاصة فى الماضى . فقد رأينا أن طبقة العمر لا تتصرف

ولا تسلك كوحدة متماسكة متعاونة إلا أثناء ما أسميناه « مدة الطبقة » أى فترة البطولة ، وأن هذا التماسك يضعف ويقل بعض الشيء بين أفراد الطبقة بعد تقاعدهم وانصرافهم إلى الحياة المدنية .

٤ — وأخيرا فان نظام طبقات العمر لا يبدو أنه يلعب دورا جوهريا فى البناء الاجتماعى لتلك المجتمعات التى تتمتع بوجود نظام انقسامى للبدنات تكون له وظيفة سياسية واضحة كما هو الحال عند المانداري مثلا أو عند البورونجا . فطبقة العمر عند المانداري تتكون على أساس أصغر الأقاليم السياسية أى أقاليم الدرجة الثالثة وبذلك لا تتخطى الطبقة الحدود الإقليمية السياسية لمحال ؛ كما أنه ليست لهذا النظام أى علاقة مباشرة بالوظيفة الحربية عند البورونجا حيث تقوم الجماعة القرابية كلها بالحرب دون أى اعتبار لعامل السن . ثم إن البدنة وأقسامها هى التى تقوم بتنظيم العلاقات السياسية بين مختلف الأقسام والأقاليم على النحو الذى نجده عند النوير ، كما أن المركز الاجتماعى يرتبط فى هذه المجموعة من الشعوب وعند البوكوت الزراعيين أيضا بالانتماء إلى بدنة معينة بالذات فى كل إقليم على حدة ولا تتوزع السلطة بحسب السن كما هو الحال فى مجتمعات الفئة الثانية كالكيسجيس والناندى والماساى . فكأنه فى المجتمعات التى لا تتمتع بوجود ذلك النمط الانقسامى من نظام البدنات الذى يقوم بتنظيم العلاقات السياسية بين الوحدات الإقليمية يكون نظام طبقات العمر (وبالتالى التفاوت الاجتماعى على أساس السن) هو العامل الأساسى فى المحافظة على كيان المجتمع واستمراره فى الوجود .

مراجع البحث

Baumann, H. and Westermann, D : *Les Peuples et les Civilisations de l'Afrique*, Paris, 1948.

Beech, M. W. H : *The Suk; Their Language and Folklore*, London, 1911.

Bernardi, B : "The Age-System of the Nilo-Hamitic Peoples", *Africa*, XXII, 1952.

Brayen, M. A. and Tucker, A. N : *Distribution of Nilotic and Nilo-Hamitic Languages of Africa*. London, 1948.

Clarke, D : "Karamojong Age-Groups and Clans", *Ug. J.*, XIV, 1950.

Driberg, J. H : "A Note on the Classification of Half-Hamites in East-Africa", *MAN*, XXXIX, 1939, No. 19.

———————— : "Age-Grades", *Encyclopaedia Britannica*, I.

Evans-Pritchard, E. E : "The Nuer Age-Sets"; *S. N. R.*, XIX, 1936.

———————— : "The Political Structure of the Nandi-Speaking Peoples of Kenya"; *Africa*, XIII, 1940.

Fosbrooke, H. A : "An Administrative Survey of the Masai Social System", *T. N. R.*, No. 26, Dec. 1948.

Gulliver, P. H : *A Preliminary Survey of the Turkana*, University of Cape Town, 1951.

———————— : "The Karamojong Cluster", *Africa*, XXII, 1952.

Hinde, S. L. and H : *The Last of the Masai*, London, 1901.

Hollis, C : *The Masai : Their Language and Folklore*, London, 1905.

Huntingford, G. W. B : *Nandi Work and Culture*, London, 1950.

Leakey, L. S. B : "Some Notes on the Masai of Kenya Colony", *J. R. A. I.*, LX, 1930.

Nalder, L. K. (ed) : *A Tribal Survey of Mongalla Province*, London, 1937.

Peristiany, S. G : *The Social Institutions of the Kipsigis*, London, 1939.

———————— : "The Age-Set System of the Pastoral Pokot", *Africa*, XXI, 1951.

Seligman, C. G : *Pagan Tribes of the Nilotic Sudan*, London, 1932.

Stigand, C. H : *The Land of Zinj*, London, 1913.

تقـــرير

عن مؤتمر طشقند للكتاب الأسيويين والإفريقيين ـ أكتوبر ١٩٥٨

(١) أعمال المؤتمر ونظامه ونتائجه :

عقد هذا المؤتمر فى مدينة « طشقند » ـ عاصمة جمهورية أزبكستان فى المدة من ٧ الى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٨ ، وحضره نحو مائتين من مندوبى اتحادات الأدباء يمثلون حوالى أربعين بلدا من بلاد آسيا وآفريقية .

ودارت بحوث المؤتمر ومناقشاته حول موضوعين رئيسيين عولجا فى جلسات عامة للمؤتمر ، وخمسة موضوعات عولجت فى لجان خاصة .

فأما الموضوعان الرئيسيان فقد كانا :

١ ـ تطور أدب البلاد الأسيوية والافريقية وثقافتها ودورهما فى الكفاح من أجل التقدم الانسانى والاستقلال القومى ومحاربة الاستعمار ، وفى الكفاح من أجل الحرية والسلام العالمى .

٢ ـ ثقافة الشعوب الأسيوية والافريقية وعلاقتها بثقافة الغرب .

وأما موضوعات اللجان الخاصة فقد كانت :

(ا) أدب الأطفال ومغزاه التربوى .

(ب) نصيب المرأة فى الأدب .

(ج) تطور الأدب المسرحى فى البلاد الأسيوية والافريقية .

(د) العلاقة بين الأدب والراديو والسينما والمسرح .

(هـ) تقوية الصلات الودية بين الكتاب الأسيويين والافريقيين .

وكان قد افتتح فى اليوم السابق لبدء المؤتمر معرض للكتاب اشتركت فيه كثير من البلاد الممثلة فى المؤتمر ، وعرضت للجمهورية العربية المتحدة فيه

نماذج من الكتب الحديثة تمثل تطور التأليف القصصي والمسرحي وأدب الأطفال ورقي فن الطباعة فيها ، مما جذب الكثيرين من الجمهور وأعضاء المؤتمر لمشاهدة الركن العربي والاطلاع على معروضاته . وقد دعي رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة لالقاء كلمة الوفود في افتتاح المعرض .

وفي الليلة السابقة لافتتاح المؤتمر عقد اجتماع مشترك بين اللجنة التنظيمية المشكلة من رؤساء الوفود ، واللجنة التمهيدية التي أعدت جدول أعمال المؤتمر ، ونوقشت الخطة العامة ، واستقر الرأي على أن يتناوب رؤساء الوفود رياسة الجلسات العامة حسب الترتيب الأبجدي لأسماء بلادهم ، وأن تكون اللغات الرسمية هي : الروسية والعربية والانجليزية والفرنسية .

وحرصت كل دولة من الدول المشتركة في المؤتمر أن تلقي في الجلسات العامة بيانا أو أكثر عن تاريخ أدبها ومعالم تطوره ، ونصيبه في كفاحها من أجل الحرية والتقدم ، وعن مقومات ثقافتها ومكانها من تاريخ الثقافات الانسانية . وامتازت بعض هذه البحوث بعمقها وخصب مادتها . وكانت مناقشات اللجان الخاصة فرصة لتوضيح الاتجاهات الأدبية والفنية في آسيا وافريقية ، ومدى ما حققته هذه البلاد من ربط بين آدابها ونهضاتها الحديثة .

وكان وفد الجمهورية العربية المتحدة قد زود بالمادة الضرورية لهذه البحوث — اذ قامت لجنة النشر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب بتشكيل لجان فرعية لاعدادها — فعكف الوفد منذ وصوله طشقند على مراجعة هذه المادة ووضعها في صيغها الأخيرة ، وعهد الى أعضائه بالقائها كل في جهة تخصصه . ولم تكن وجهة نظر الجمهورية العربية المتحدة في موضوع « ثقافة الشرق العربي وصلتها بثقافة الغرب » وهو أحد الموضوعين الرئيسيين للمؤتمر قد أعدت ، فقام رئيس وفد الجمهورية باعداد بحث فيها والقاه في احدى الجلسات العامة للمؤتمر ، مبرزا فيه مكان الشرق العربي من التاريخ الحضاري للانسانية عامة ولقارتي آسيا وافريقية خاصة ، وما كان له في القديم من أثر في ثقافة الغرب ، ثم ما كان للحضارة العربية الاسلامية من صلات بالحضارات الشرقية القديمة ، ومن أثر في النهضة الثقافية والأدبية والفكرية

للغرب الحديث . وقد صور البحث تجدد النهضة العربية في القرن التاسع عشر ، وما كان لها من اتصال بثقافة الغرب ، وما كان للعرب المحدثين من كفاح في سبيل الاصلاح والترقي من ناحية ، وفي سبيل مقاومة التدخل الأجنبي من ناحية أخرى . وأبرز البحث ازدهار التأليف وتطور فنون الأدب في العالم العربي الحديث ، وعناية الجمهورية العربية المتحدة بموضوع التبادل الثقافي مع مختلف الأمم ، ومظاهر التنظيم والتعبئة الأدبية والعلمية في الجمهورية منذ قيام ثورة التحرير ، وانشاء المجالس العليا للعلوم والآداب والفنون وجوائز الدولة لتقدير العبقريين وتشجيع النابهين في مختلف الميادين ، وشعور الثقافة العربية بكيانها واستقلالها وأنها أصبحت في مركز يتيح لها أن تقوم بنصيبها مرة أخرى في خدمة الثقافة الانسانية وفي نشر الإخاء والسلام العالمي .

أما اقامة الوفود أثناء المؤتمر فقد أعد لها فندق فخم أتم بناؤه حديثا وزود كل وفد بمترجم أو أكثر لتيسير الاتصال والتفاهم وللعناية براحة الأعضاء . وأقيمت للضيوف حفلات استقبال وموسيقى وتمثيل وباليه وأوبرا وغناء بدأت منذ وصول بعض الوفود الى طشقند واستمرت خلال أيام المؤتمر ، وبدت مدينة طشقند في أبهى زينتها ليلا ونهارا ، وتسابق مواطنوها لتحية الوفود ، ونظمت زيارات لمعالم المدينة ومعاهدها ومنشآتها العامة ولبعض المزرعات الجماعية القريبة منها ، كما أقام بعض مواطني المدينة حفلات خاصة لبعض الوفود ازداد فيها التعارف وتبودلت المعلومات عن أحوال الأمم الآسيوية والافريقية ونهضاتها وآدابها .

وفي يوم ١٣ أكتوبر انتهت أعمال المؤتمر ، وتلي في الجلسة الختامية باللغات الأربع بيان عام موجه الى كتاب العالم ، وضعت صيغته لجنة من ممثلي ثلاث دول — من بينها الجمهورية العربية المتحدة — ولخصت فيه اتجاهات البحوث التي ألقيت في الجلسات العامة ، والمناقشات التي دارت في اللجان ، والرغبات والتوصيات التي قدمت ، وأبرز فيه أثر التراث الثقافي للأمم الآسيوية والافريقية في ثقافات العالم الحديث وفي التقدم الانساني ، وأعلن فيه تمسك هذه الأمم بالمثل العليا للسلام والصداقة بين شعوب الأرض قاطبة كما أبرزت

الصلة الوثيقة بين آداب الشعوب وحيواتها ومصايرها ، وضرورة توفير الظروف الضرورية للخلق الأدبي الصحيح من حرية واستقلال وسيادة قومية .

وأشار البيان الى أن كتاب آسيا وافريقية الذين اجتمعوا فى المؤتمر — مستلهمين وحى « باندونج » و « دلهى » و « القاهرة » — يتوجهون الى كتاب العالم والى العاملين فى الميدان الثقافى فى أوربا وأمريكا واستراليا — دون نظر الى فوارق اللون والجنس والعقيدة — معلنين ان هذه هى المرة الأولى التى يجتمع فيها فى صعيد واحد مثقفون من القارتين الكبيرتين يمثلون الفا وخمسمائة من ملايين المواطنين . وهؤلاء المواطنون الوارثون لأقدم الحضارة ، والذين يؤلفون ثلثى الجنس البشرى ، قد حاول الاستغلال والاستعمار والتفريق العنصرى أن يقف حائلا دون تقدم مدنياتهم ، وأن يسلبهم حرياتهم وثرواتهم ويضيق عليهم فى أوطانهم ، ويقضى على ثقافاتهم ولغاتهم . ولكن هذه المحاولات عجزت عن أن تقضى على لغات الأمم الأسيوية والافريقية وثقافاتها القومية وان كانت قد نجحت فى تعويق نموها .

وفى مائتى السنة الأخيرة شغلت آداب هذه الأمم بتسجيل كفاحها ضد السيطرة الأجنبية والتحكم الاستعمارى ، وبالتعبير عن مشاعرها وعن ايمانها بحق الانسان فى أن يقرر مصيره ، وحق الشعوب فى أن تحيا حياتها الحرة الكريمة ، فانطلقت من كثير من كتبها وقصائدها وأغانيها وروايتها روح الارادة والتصميم والنضال ، وارتفع صوت الكفاح ضد السيطرة الأجنبية :

ان مؤتمر « طشقند » يؤكد الصلة الوثيقة بين الأدب الخالق وكفاح الشعوب ، وان الكتاب ليدركون أن الجهود العظيمة فى ميدان الابداع الأدبى والثقافى لا يمكن أن تنجح الا فى جو من الحرية ، وأن حياة الكتاب مرتبطة بحياة شعوبهم . واذا كان كتاب آسيا وافريقية يعملون على تقوية الأواصر مع كل شعوب العالم — ومن بينها شعوب الغرب — فانهم يرفضون تقسيم الثقافة الى فاضلة ومفضولة والى شرقية وغربية . وهم لهذا سيجاهدون فى زيادة التبادل وفى المحافظة على التراث الثقافى للعالم .

ويختم البيان بالفقرة التالية الموجهة من أعضاء المؤتمر الى كتاب العالم :

« لهذا كله تدعوكم أن تنضموا الينا فى محاربة أدب التفرقة والبغض الذى يسمم عقول الكبار ويفسد أرواح الأطفال ، ولناديكم أن تسيروا معنا فى البحث عن الحقيقة والجمال والحرية ، وفى خلق أدب يرتبط بالحياة والناس ويساعدهم على أن يعملوا لسيادة العقل والعدالة على الأرض ...

عاشت وحدة الكتاب الأسيويين والافريقيين ..!

عاشت الحرية والاستقلال لجميع الشعوب ..!

عاشت آداب الشعوب وثقافة الشعوب ..!

عـــاش الســـلام » ...

وكان مما أوصى به المؤتمر انشاء مكتب دائم للكتاب الأسيويين والافريقيين — تمت الموافقة على أن يكون فى « سيلان » وعلى أن يكون له فرعان أحدهما فى بلد أسيوى والآخر فى بلد افريقى ، وعلى أن يتولى المكتب بحث الوسائل التى تعين على تقوية الروابط بين الكتاب الأسيويين والافريقيين: كانشاء مجلة والعمل على تبادل ترجمة الأعمال الأدبية وانشاء صندوق لمساعدة الكتاب وغيرها من الوسائل .

ووافق المؤتمر — فى اجتماع وترحيب — على قبول الدعوة التى وجهها وفد الجمهورية العربية المتحدة فى الجلسة الختامية العامة للمؤتمر لعقد الدورة التالية لمؤتمر الكتاب الأسيويين والافريقيين فى القاهرة سنة ١٩٦٠

ونوه جميع من حضروا المؤتمر بنجاحه فى تقوية الصلات بين أدباء آسيا وافريقية ، وزيادة التعارف والتعاون وتبادل المعلومات بينهم وابراز اتجاهاتهم الرئيسية فى فهم وجهودهم المثمرة فى نهضات شعوبهم .

(٢) وفدا الجمهورية العربية المتحدة ونشاطه فى المؤتمر ..

تألف وفد الجمهورية العربية المتحدة فى المؤتمر من ثمانية أعضاء ، خمسة من الاقليم الجنوبى وثلاثة من الشمالى .

وقد عقد الوفد قبل سفره جلسة بدار المجلس الأعلى للفنون والآداب بتاريخ أول أكتوبر سنة ١٩٥٨ حضرها السيد سكرتير عام المجلس الذى أطلع الأعضاء على المراحل التمهيدية التى سبقت المؤتمر وناقش الأعضاء مهمتهم واتفقوا على خطوطها الرئيسية واختاروا من بينهم :

الأستاذ محمد خلف الله أحمد عميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية رئيسا للوفد

والدكتور ابراهيم الكيلانى المدرس بجامعة دمشق وكيلا للوفد

والأستاذ مرسى سعد الدين بالمجلس الأعلى للفنون والآداب سكرتيرا للوفد

وعند وصول الوفد الى طشقند عقد سلسلة اجتماعات قسم فيها العمل بين أعضائه واختار منهم ممثليه فى مختلف اللجان ووضع البحوث فى صيغها الأخيرة وناقش التوصيات التى سيتقدم بها للمؤتمر وأقرها .

وقد رحب الوفد بما أبدته سائر الوفود العربية من رغبتها فى الاجتماع به وتنسيق خططها معه ، وكان الوفد موضع الاحترام والتقدير من الجميع فقد حرصت كثير من وفود البلاد الكبرى على مشاورته وتعرف رأيه واتجاهه فى كثير من المسائل كما كان رئيسه غالبا يدعى ليكون أحد الذين ينوبون عن بقية رؤساء الوفود فى القاء الكلمات فى المناسبات العامة أو الرسمية .

وأظهر أهل طشقند عناية خاصة بوفد الجمهورية وبالوفود العربية وقام كثير منهم بدعوة الأعضاء العرب الى منازلهم والى مساجدهم ومكتباتهم ومنشآتهم التربوية . وطلبت كثير من الصحف وهيئات الاذاعة والتلفزيون من كثير من أعضاء الوفد كلمات وأحاديث ومقالات عن انطباعاتهم من طشقند ومؤتمر الأدباء ، وعن تطور النهضة فى مختلف نواحيها فى الجمهورية العربية المتحدة .

وفى اليوم التالى لانتهاء المؤتمر دعى وفد الجمهورية العربية المتحدة وبعض الوفود الأخرى لحضور الجلسة الأولى من مؤتمر كتاب أزبكستان الذى افتتح فى طشقند يوم ١٤ أكتوبر وللتحدث فى هذه الجلسة للمؤتمرين .

(٣) ومن ١٥ الى ٢٠ أكتوبر بدأت حلقة ثانية فى نشاط وفود المؤتمر فقد وجهت اليها الدعوات من مختلف جمهوريات الاتحاد السوفيتى للزيارة والاجتماع بممثلى اتحادات الأدباء فيها وحضور بعض الحفلات التذكارية التى أقيمت فيها . وقد استجاب وفد الجمهورية العربية المتحدة لبعض هذه الدعوات فسافر ممثلون له الى جمهورية طاجكستان وحضروا العيد التذكارى لشاعرها القديم أبى عبد الله الردكى وسافر آخرون الى جمهورية جورجية واشتركوا فى أفراح العيد التذكارى لانشاء عاصمتها « تبليس » ، وجماعة ثالثة من الوفد اتجهت الى موسكو لزيارة معالمها ومعاهدها والاجتماع بأدبائها . وقد كانوا جميعا موضع الحفاوة الخاصة فى البلاد التى زاروها وفى الاجتماعات والحفلات التى حضروها وتحدثوا فيها . وعنى بعض أعضاء الوفد — وأنا منهم — بزيارة جامعة موسكو ومعاهد الدراسات الشرقية فى بعض الجمهوريات . فزرنا فى « طشقند » معهد العلوم الشرقية واطلعنا على نواحى نشاطه التى منها نشر أعمال ابن سينا والبيرونى باللغتين الروسية والأزبكية — وقدهدانا المعهدجملة مجلدات منها . كما أهداه أعضاء الوفد بعض مؤلفاتهم وزرنا فى « موسكو » معهد الدراسات الشرقية وأطلعنا الأساتذة فيه على مشروعاتهم التى يعتزمون القيام بها فى السنوات السبع القادمة من دراسة نواحى النهضة فى العالم العربى المعاصر ، وأهدونا بعض منشوراتهم أيضا . واجتمعنا فى « لنتجراد » بأساتذة معهد الدراسات الشرقية فيها فأحاطونا علما بما قاموا ويقومون به من دراسات عربية كلاسيكية ومعاصرة وأهدونا بعض كتبهم . هذا الى المتاحف والمعالم التى شاهدناها : كمتحف الارمتاج فى لنتجراد وقصر الكرملين ومتاحفه فى موسكو والمسجد الجامع فى طشقند ومسجد لنتجراد وآثار سمرقند وغيرها .

وفى يوم ٢٠ أكتوبر كانت الوفود جميعها على موعد مع اتحاد أدباء موسكو ، فأقيم فى صالة تشايكوفسكى اجتماع أدبى كبير تبودلت فيه الأحاديث والخطب وتلاه حفل سمر . ثم شهدت الوفود العربية وبعض الوفود الافريقية حفلا ثانيا يوم ٢١ أكتوبر أقامه بعض الكتاب السوفيتين . وشهد وفد الجمهورية العربية المتحدة فى مساء ذلك اليوم حفل الاستقبال الذى أقامه المشير عبد الحكيم عامر فى أحد فنادق موسكو الكبرى ، واستمع الوفد لخطاب المشير ولخطاب رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى خروشتشوف . وفى يوم ٢٢ أكتوبر شهدت الوفود حفل الاستقبال الذى أقامته الحكومة السوفيتية فى قصر الكرملين لتكريم أعضاء المؤتمر وخطب فيه خروشتشوف خطبة طويلة نوه فيها بأعمال المؤتمر وبأثر الأدب فى حياة الشعوب . وتكلم فيه ممثلون لبعض الوفود كان من بينهم رئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة . واستجابة لدعوة وصلتنا من اتحاد أدباء تشيكوسلوفاكيا قام ستة منا بزيارة «براغ» فى طريق عودتنا الى الوطن ، وقد قضينا هناك يومين فى ضيافة الاتحاد ، زرنا فيهما معالم المدينة وعقدنا اجتماعين أحدهما مع ممثلى هيئات النشر ، والثانى مع ممثلى اتحاد الأدباء . وبحثنا فى الاجتماعين بعض مشروعات للتبادل الثقافى والأدبى واطلعنا على نماذج مما ترجم التشيكوسلوفاكيون من الأدب العربى قديمه وحديثه الى لغتهم . وقد أهدانا الاتحاد بعض مطبوعاته ونسخا من كتب مصورة أنيقة الطبع عن تشيكوسلوفاكيا وفنونها الشعبية . وعدنا عن طريق زيورخ فوصلنا الوطن يوم الثلاثاء ١٩٥٨/١٠/٢٨

(٤) بعض ملحوظات ومقترحات :

١ — كان واضحا للجميع ان مكانة الجمهورية العربية المتحدة عالية فى ذلك المحيط الدولى ، وكان ينظر الى الجمهورية باعتبارها عاملا فعالا فى توجيه التفكير وحل المشكلات . وكان للشعور بهذه المكانة أثر فى نشاط وفد الجمهورية وسلوكه ووحدة تفكيره . وقد لمس الوفد بصفة خاصة

من السيد « شرف رشيدوف » رئيس المؤتمر كل عناية وتقدير ، مما ظهر أثره في استقباله الذي أقامه للوفد وفي مشاوراته معه وتكريمه اياه في المناسبات العامة وترحيبه بأن تكون الدورة القادمة في القاهرة . ويرى الوفد من الحق أن ينوه بما كان للسيد « رشيدوف » وشخصيته اللبقة الحازمة من أثر في نجاح المؤتمر وتوطيد العلاقات الطيبة بين الوفود . كذلك وجد الوفد كل رعاية ومودة من السيد محي الدينوف نائب رئيس الحكومة ، والكاتب الروسي المشهور سفرباتوف ، والشاعر المعروف « طورسون زاده » وغيرهم من القادة والمفكرين الذين زاروا الجمهورية العربية المتحدة في المدة الأخيرة .

٢ — حرصت بعض وفود الدول الكبيرة على أن تجلب معها من بلادها هدايا من الكتب والمخطوطات والتحف . وكان لذلك أثر طيب في صلاتها بالوفود الأخرى وبالهيئات المضيفة في طشقند ، وفي التعريف بنماذج من الفنون القومية لتلك الدول .

٣ — عنيت بعض الدول الكبرى بأن يرسل المسئولون فيها رسائل تحمل تمنياتهم الطيبة . وقد قرئت هذه الرسائل في الجلسات العامة وقوبلت بعاصفة من التصفيق والتقدير . ومن بين هذه الرسائل رسالة من السيد رئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر ، وأخرى من السيد أنور السادات سكرتير عام المؤتمر الاسلامي بالقاهرة ، وثالثة من السيد يوسف السباعي سكرتير عام المجلس الأعلى للفنون والآداب .

٤ — كانت الناحية التنظيمية في المؤتمر متقنة ، وكان خبراء الترجمة بين اللغات مثالا في الكفاية وسرعة البديهة واتقان الأداء . وقد عنى اتحاد أدباء طشقند بحشد خير القوى الفنية لاعطاء وفود المؤتمر صورة واضحة من التطور الفني في جمهوريات آسيا الوسطى . ومما لفت النظر اتقان بعض الفنانين والفنانات ألوانا من الغناء والرقص الأسيوى الافريقي : العربي والهندي والصيني وغيرها . وقد نجحت الهيئات المحلية في أن تتخذ من هذه الألوان تحية للوفود الكبيرة المشتركة في المؤتمر مما كان له في نفوسهم وقع حسن .

٥ ــ مثل هذا المؤتمر فرصة ثمينة للدولة الداعية اذا أحسنت الاعداد لها. ولهذا شعرنا ــ نحن أعضاء وفد الجمهورية بغبطة بالغة لقبول المؤتمر دعوة بلادنا فى أن يعقد دورته القادمة فى القاهرة . وأحسسنا بضرورة الاستعداد الكامل لتلك الدورة بالتنظيم الذى يجب أن يبدأ منذ الآن لتحديد الموضوعات وترتيب الأماكن لاقامة الوفود والرحلات التى ستنظم لها والمعارض والمتاحف والمعاهد والمدن التى ستزورها ، واعداد كتب متقنة الطبع جميلة الاخراج عن نهضة الجمهورية فى مختلف نواحيها ــ وخاصة فى هيئاتها وفنونها الأدبية ، وعن تاريخ الأدب والثقافة العربية والتراث الشعبى ، وقوائم بالكتب العربية التى ترجمت الى اللغات الأخرى ، وبالكتب الأجنبية التى ترجمت الى العربية ، مع نماذج فاخرة منها تهدى لرؤساء الوفود ولكبار الشخصيات التى ستشترك فى المؤتمر . ومن الطبيعى أن توجه عناية خاصة الى تنظيم الناحية الترفيهية التى ستؤديها فرق الفنون الشعبية والأوبرا والتمثيل والباليه ومعاهد التربية الرياضية وغيرها . ومن الأهمية بمكان التفكير منذ الآن فى اعداد خبراء وخبيرات فى الترجمة على مستوى عال فى الدقة والكفاية والنضج الثقافى . فقد أصبح هذا العنصر ضروريا لنجاح أى مؤتمر دولى .

محمد مصطفى الدين أحمد
عميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية
ورئيس وفد الجمهورية العربية المتحدة
فى مؤتمر طشقند للكتاب الآسيويين والافريقيين